كمال داود

مُعارضة الغريب

رواية

[دار البرزخ] دار الجديد

كمال داود

مُعارضة الغريب

رواية

[دار البرزخ] دار الجديد

كمال داود

مُعارضة الغريب

رواية

[دار البرزخ] دار الجديد

الطبعة الأولى، خريف 2015

نقلها إلى العربيّة : ماريّا الدويهي وجان هاشم

راجع الترجمة ودقّقها : قلَمَ دار الجديد

*

خطّ خطوط الغلاف : علي عاصي، صمّمته: جنان سليم

أخرج صفحات الداخل : أحمد منصور

*

Cet ouvrage, publié dans le cadre du programme d'aide à la publication Georges Shéhadé, bénéficie du soutien du ministère des Affaires Étrangères et du Développement International et du Service de Coopération de l'ambassade de France au Liban.

على نهج دار الجديد حُرِّرت هذه الترجمة

*

يصدر هذا الكتاب بالتعاون بين دار البرزخ (الجزائر) ودار الجديد (بيروت)

[barzakh]

ردمك : 978-9931-325-99-4

الإيداع القانوني : 2015-3757

*

صدر الكتاب بطبعته الفرنسيّة تحت عنوان :
Meursault, contre-enquête

لكاتبه : Kamel Daoud

صورة الغلاف : © Louisa Ammi

إلى عايدة ،

إلى إقبال ،

عينيّ المفتوحتين .

لكلِّ شَعْبٍ ساعَةٌ ـ ساعَةٌ يَنْصَرِفُ فيها إلى الجريمة .

هكذا تجري من التاريخ أنهاره .

إميل سيوران

من كتاب جدليّة المرارة .

I

أمّي اليوم ما زالت على قيد الحياة. صامتة، لا تنبس ببنت شفة، علمًا أنّ في جَعبتها الكثير لتقوله، بعكسي أنا، فلشدَّ ما كرّرت هذه القصّة أراني بالكاد أتذكّرها.

ما أعنيه هو أنّ نصف قرن قد مضى عليها. أيّامذاك أثارت لغَطًا، وما زال الناس يتحدّثون عنها، لكنّهم لا يذكرون سوى ميت واحد، من دون تورُّع كما ترى، لأنّه قضى فيها اثنان. نعم قتيلان. وما سبب هذا الإغفال؟ هو أنّ الأوّل يتقن فنّ السرد حتّى إنّه نجح في التعتيم على جريمته، بينما الثاني مجرَّد بائس أمّيّ، بدا أنّ الله خلقه فقط لكي ترديه رصاصة ويعود إلى التراب. هو شخص مغمورٌ، مرّ مرور الكرام على غفلة من زمن لم يدوّن اسمه.

دعني أصارحك فورًا: القتيل الثاني، الذي اغتيل، هو أخي؛

إمّحى ذكره تمامًا، ولم يبقَ إلّا أنا كي أتكلّم نيابةً عنه، أنا الجالس في هذه الحانة مترقّبًا تعازيَ لم يقدّمها إليَّ أحدٌ قطّ.

قد يُضحكك الأمر وما أوكلته لنفسي من مَهمّة: أن أبيع صمت الكواليس أمام صالة خاوية. لهذا السبب أساسًا أتقنتُ هذه اللغة قراءة وكتابة، كي أتكلّم نيابةً عن ميت، وأستأنف بدء جمله.

صار القاتل معروفًا وقصّته المكتوبة ببراعة هي التي حفّزتني على تقليده، بل قُل معارضته. كتب الكاتب بلغته. ولذلك قرّرت أن أحذو حذو الناس في هذا البلد بعد استقلاله: أعني استعادة حجارة منازل المستوطِنين سابقًا لأبنيَ بها منزلاً لي، لغةً لي. إنّ كلمات القاتل وعباراته هي «ملكيَ» السائب. ففي هذا البلد كلمات مبعثرةٌ لم تعد ملكًا لأحد نقرؤها على واجهات المتاجر والكتب القديمة، وعلى الأوجه لعلّها تحوّلت إلى لغة هجينة تلك التي خلّفها لنا الاستعمار.

إذًا، مات القاتل من زمان، ومن زمن طويلٍ رحل أخي عن هذه الحياة، رحل إلّا عنّي. أعرف أنّك متلهّف لطرح أسئلة من النوع الذي أمقته، لكن أرجوك أن تنصت إليّ بانتباه، عندها ستفهم. فالقصّة ليست عاديّة. هي قصّة أستعيدها

دومًا من نهايتها ثمّ أُرجعها إلى بدايتها. نعم، كسرب سمك السلمون المرسوم بقلم رصاص.

ككلّ الآخرين، لا شكّ أنّك قرأت القصّة كما رواها الرجل الذي كتبها؛ يكتبُ ويُجيدُ، تبدو كلماته حجارة نُحتت بإزميل الدقّة. بطلك شخصٌ قاسٍ ودقيقٌ في اختيار التفاصيل، حدّ تصييرها معادلات حسابيّة لامتناهية على أساس الحجارة والمعادن. أرأيتَ أسلوبه؟ لكأنّه يتوسّل فنون الشعر، للحديث عن طلقة ناريّة! عالمه خاصٌّ، منقوشٌ بصفاء صباحيّ، دقيقٌ، نقيّ، عابقٌ بالنكهات والآفاق. لا تشوبه سوى ظلال العرب، تلك الكائنات الضبابيّة غير اللائقة، الآتية من زمن ماض وكأنّها أشباح، لغتها الوحيدة لحن مزمار. أقول لنفسي إنّه سئم الدوران حول نفسه في بلدٍ لفظه حيًا وميتًا. جريمته، تلك التي ارتكب، كجريمة عاشق خاب أمله من أرضٍ لن يمتلكها. لكَم تعذّب، هذا المسكين! كأن تكون منتميًا إلى مكان لم تولَد من صلبه.

أنا بدوري، قرأتُ روايته للأحداث مثلك ومثل ملايين الآخرين. ومن البداية يُفهَم كلّ شيء، فهو حمل اسم رجل، وأخي اسم حادث. كان بإمكانه أن يسمّيه «الثانية بعد الظهر»

كما سمّى الآخرُ زنجيَّه «جمعة»، أحد آونة النهار بدلاً من أحد أيّام الأسبوع. «الثانية بعد الظهر» اسمٌ مناسبٌ تمامًا. «زوج» في اللغة العربيّة، اثنان، ثنائي، هو وأنا، توأمان لا لبس فيهما بشكل ما بالنسبة إلى من يعرف هذه القصة. عربيّ وحسب، فتيًا لم يعمّر طويلًا، عاش ساعتين وظلّ ميتًا طوال سبعين عامًا من دون انقطاع، حتّى بعد دفنه. كأنّما أخي «زوج» تحت المجهر، القتيل المغدور نفسه يشار إليه دومًا باسم كالنسمة وعقربَي ساعة حائط، أيضًا وأيضًا، لكي يكرّر مشهد مصرعه برصاصة أطلقها فرنسيٌّ متسكّعٌ متضَجِّرٌ، لم يكن يعرف كيف يُزجي نهاره وأثقال همومه الجاثمة على صدره.

وأيضًا! حين أستعيد تلك القصّة في ذهني ينتابني الغضب، أقلّه في كلّ مرة وجدت فيها القوّة لهذه الحالة. هو الفرنسيّ يلعب فيها لعبة الموت ويسهبُ شارحًا ظروف موت والدته، ثمّ كيف فقد جسده تحت أشعّة الشمس، ثمّ كيف فقد جسد حبيبة له، ثمّ كيف قصد الكنيسة ليتبيَّن أنّ ربّه قد تخلّى عن جسد الرجل، ثمّ كيف سهر عند جثمان أمّه وجثّته هو، إلخ. رحماك يا ربّ، أيمكن قتل أحدهم وسلبه حتّى موته؟ فأخي هو الذي تلقّى الرصاصة لا هو! موسى لا مورسو، أليس

كذلك؟ إنّ في الأمر ما يُذهلني.

لا، لم يسعَ أحدٌ، حتّى ما بعد الاستقلال، إلى معرفة اسم الضحيّة ولا عنوانه ولا أسلافه، ولا أولاده المحتملين. لا أحد. وقف الجميع مشدوهين أمام تلك اللّغة المكتملة التي تمنح السماء بريقًا ألماسيًا، وعبّر الجميع عن تماهيهم وجدانيًا مع عزلة القاتل مقدّمين إليه أبلغ التعازي. من يمكنه أن يعطيني اليوم الاسم الحقيقيّ لموسى؟ ومن يعلم أيّ نهر حمله صوب بحر قطعه سيرًا على الأقدام، وحيدًا، بلا شعب ولا عصا عجائبيّة؟ من يعرف إن كان موسى صاحب مسدّسٍ أو عقيدة أو ضربة شمس؟ من هو موسى؟ هو أخي. وهذا ما أرمي إليه. أن أروي لكما ما لم يتسنَّ قطّ لموسى أن يرويَه. ها أنتَ يا صديقي الشاب تفتح قبرًا وأنت تدفع باب هذه الحانة. هل الكتاب في حقيبتك؟ حسنًا اقرأ لي كتلميذ نجيب، المقاطع الأولى...

هل فهمت شيئًا؟ لا؟ دعني أشرح لك. ما إن ماتت والدة هذا الرجل القاتل، حتّى بات بلا موطن، وغرق في البطالة والعبثيّة. وظنّ نفسه روبنسون المفترض به أن يغيِّر القدر بقتله رجله «جمعة»، بيد أنّه اكتشف أنّه في فخّ على جزيرة،

وراح يهذي ببراعة كببّغاء معزّيًا نفسه: «بور مورسو، أي أنت؟ بور مرسو، أين أنت؟». أقسم لك إن أنتَ كرّرت هذه الصيحة فستبدو لك أقلّ غباءً. وأنا أطلب منك هذا من أجلك أنت. فأنا حفظت الكتاب عن ظهر قلب، وأستطيع أن أتلوَه عليك بأكمله كالقرآن. وهذه القصّة مكتوبة بقلم جثّة، لا كاتب. نتبيَّن ذلك من معاناته من ضربة شمس أزاغت بصره والألوان، ولأنه لا رأي له في أيّ شيء اللهم إلّا في الشمس والبحر والأحجار القديمة. من البداية نستشعر بأنّه يبحث عن أخي. وفي الحقيقة بحث عنه لا للقائه بل لنقيض ذلك: لكي لا يلتقيَه أبدًا. ما يؤلمني، كلّما فكرت في القصّة، هو أنّه قتله وهو يفشخ عنه لا بالتصويب عليه. أنت تعرف أنّ في جريمته عدم اكتراث مهيب، حالَ، فيما بعد دون أيّة محاولة، لاعتبار أخي «شهيدًا». كلمة الشهيد وردت بعد مضيّ زمنٍ طويل على الاغتيال؛ وما بين الزمنين كان أخي قد تحلَّل والكتاب لاقى النجاح الذي نعرفه. ثمّ بعد ذلك راح الجميع يجهدون لكي يبرهنوا أنّه لم تقع جريمة بل مجرَّد ضربة شمس.

هاها! ماذا تشرب؟ هنا أطيب الكحول تُقدَّم بعد الموت، لا قبله. هذا رأي الدين، فاشرب، اشرب يا أخي، فبعد

سنوات، حين ينتهي العالم، لن تجد حانةً إلّا في الجنّة!

سألخّص لك الحكاية قبل أن أقصّها عليك: هناك رجلٌ يتقن الكتابة قتل «عربيًا» لم يكن، في ذلك اليوم، قد حمل اسمًا بعد، كما لو أنّه تركه معلّقًا بمسمار وهو يدخل المشهد، ثمّ راح يبرّر ذلك بأنّها غلطة من إله لا وجود له وبسبب ما كان قد أدركه للتوّ تحت أشعّة الشمس، ولأنّ ملح البحر أرغمه على إغماض عينيه. بعدها مرّ فعل القتل دون عقابٍ البتّة، ولأنّ القانون لم يكن ساريًا بين الهاجرة والساعة الثانية، بينه وبين زوج، بين مورسو وموسى. ثمّ، وعلى مدى سبعين عامًا، كان للجميع يدٌ في المسارعة إلى إخفاء جثّة الضحيّة وتحويل ساحة الجريمة إلى متحف وهميّ. ماذا يعني «مورسو»؟ هل تعني «Meurt seul» أي «يموت وحيدًا» أم «Meurt sot» أي «مات من الهبل» أم «Ne meurt jamais» أي «لا يموت أبدًا»؟ أخي من جهته، لم يؤتَ على ذكره في هذه الحكاية. وأنت هنا، كأسلافك، تَضِلّ الطريق. فالعبثيّة تنكّبناها أنا وأخي على ظهرينا أو في أحشاء أرضنا، لا الآخر. إفهمني جيّدًا، فأنا لا أصدر لا عن حزن ولا عن غضب. حتّى إنّني لا أتلبّس الحداد، إنّما فقط... فقط ماذا؟ لا أعرف. أعتقد

أنّني أريد إحقاق العدالة. قد يبدو هذا سخيفًا منّي في عمري هذا... لكنّني أقسم لك إنّها الحقيقة. وما أعنيه بذلك «عدالة التوازنات» لا عدالة المحاكم. ثمّ إنّ لي سببًا آخر: فأنا أريد أن أمشيَ دون شبح يلاحقني. وأظنّني أحزر لماذا تؤلَّف الكتب الحقيقيّة. ليس طمعًا في الشهرة، بل سعيًا إلى الاحتجاب عن الأعين، بطريقة أفضل، مع ادّعاء الإمساك بلبّ العالم في الوقت نفسه.

هيّا، اشرب وانظرمن النوافذ، إخال البلد وهم بلد. حسنًا حسنًا، إنّه خطؤك أيضًا يا صديقي، وحشريّتك تستفزّني. مضت عليّ سنوات في انتظارك، وإن عجزت عن تأليف كتابي، فبإمكاني، على الأقلّ، أن أسرده لك، أليس كذلك؟ فالرجل الذي يشرب يحلم دومًا برجل يصغي إليه. إنّها حكمة اليوم، سجّلها في دفتر يوميّاتك...

الأمر بسيط، يُفترض إذًا إعادة كتابة هذه القصّة، باللغة نفسها لكن من اليمين إلى اليسار. أي البداية مع جسده الحيّ، والأزّقة التي قادته إلى حتفه، واسمه الأوّل وصولًا إلى تلقّيه الرصاصة. فمن أسباب تعلّمي هذه اللغة هو أن أروي هذه القصّة نيابة عن أخي، صديق الشمس. هل يبدو لك ذلك

مستبعدًا؟ أنت مخطئ. فأنا أردت الحصول على هذا الجواب الذي لم يُرِد أحد أن يعطيني إيّاه في الزمان المناسب. اللغة تُشرَب ويُنطق بها إلى أن تتملّكك يومًا، إذّاك هي تتمرّس بإدراك الأمور نيابة عنك وتستولي على الفم كما يفعل الزوجان في قبلة شرهة. عرفت شخصًا تعلّم الكتابة باللغة الفرنسيّة لأنّ والده الأمّيّ تلقّى ذات يوم برقيّة لم يتمكّن أحد من قراءتها، كان ذلك في زمن بطلك والمستوطنين. وبقيت البرقيّة أسبوعًا تهترئ في جيبه حتّى قرأها له أحدهم، فإذا فيها ثلاثة أسطر تبلّغه وفاة والدته في مكانٍ ما، في البلاد القصيّة الجرداء. قال لي ذلك الرجل: «تعلّمت الكتابة من أجل والدي ولكي لا يتكرّر الأمر أبدًا بعد ذلك. لم أنسَ قطّ غيظه من نفسه ونظرته التي التمست العون منّي». وفي الحقيقة هذا هو دافعي أيضًا. هيّا اكمل القراءة، حتّى وإن كان كلّ شيء مكتوبًا في رأسي. في كلّ مساء يطلع عليّ أخي موسى، الملقّب بـ«زوج»، من عالم الأموات ويشدّ لحيتي صائحًا: «يا أخي هارون، لماذا سمحت بحدوث ذلك؟ بالله عليك، أنا لست عِجلًا، أنا أخوك!». تابع، إقرأ!

فلنوضح، بدايّة أنّنا كنّا شقيقين وحيدين، ليس لنا أخت

لعوب كما أوحى بطلك في كتابه. كان موسى أخي البكر، فارع الطول، كبير القامة نعم، إنّما جسمه نحيل أعقد بسبب الجوع والقوّة المتولّدة من الغضب. كان وجهه حادّ التقاطيع، ويداه طويلتين تدافعان عنّي ونظراته قاسية بسبب الأرض التي فقدها الأجداد، لكن عندما أفكّر فيه أظنّ أنه يحبّنا أصلًا كما يحبّنا الأموات، أي بتلك النظرة الملقاة من العالم الآخر ومن دون كلام فارغ. عندي القليل من الصور عنه، لكنّي حريص على وصفها لك بدقّة، كما في ذلك اليوم عندما عاد باكرًا من السوق في حيّنا، أو من المرفأ حيث كان يعمل حمّالًا ورجلًا لكلّ المهمّات، يحمل ويجرّ ويرفع ويتصبّب عرقًا. في ذلك اليوم التقاني وأنا ألعب بإطار دولاب عتيق، فحملني على كتفيه وطلب منّي أن أمسكه من أذنيه لأجعل من رأسه مِقودًا. وأذكر أنّني طرت فرحًا فيما كان يدحرج الإطار مقلّدًا صوت المحرِّك. أتذكّر رائحته، رائحة الخضر المهترئة والعرق التي تعبق بها عضلاته وأنفاسه معًا. إليك صورة أخرى من يوم العيد. كان عشيّة العيد قد ضربني على نحو مبرِّح لحماقة ارتكبتها، وإذا نحن الاثنان منزعجان. يوم العيد هو يوم الغفران؛ يُفترض به أن يقبّلني، أمّا أنا فلم أُرِد له أن يخسر من

إبائه أو يتنازل ليطلب مني الاعتذار ولو باسم الله. كما أذكر قدرته تلك على المكوث جامدًا على عتبة بيتنا، أمام جدار بيت الجيران، يدخّن سيجارة ويشرب فنجان قهوة مُرّة من إعداد أمّي.

إختفى والدي منذ دهر متلاشيًا وسط شائعات أولئك الذين قالوا إنّهم التقوه في فرنسا، ووحده موسى ظلّ يسمع صوته ويتلو علينا ما كان يمليه عليه في أحلامه. لم يره أخي سوى مرّة واحدة، ومن بعيد، حتّى إنّه شكّ في الأمر. كنت وأنا طفلٌ، أميّز الأيّام التي تقوى فيها الشائعات من الأيّام التي تمرّ من دونها. فإذا سمع أخي موسى كلامًا عن أبي يعود إلى البيت بحركات عصبيّة ونظرات ناريّة، وأحاديث هامسة مع أمّي تنتهي بشجارات عاصفة. لم أكن معنيًا بذلك إنّما كنت أدرك الأمر الأساسيّ، فأخي كان ناقمًا على أمّي لسبب غامض، وكانت تدافع عن نفسها بطريقة أكثر إبهامًا. كانت نهارات وليالي قلق، يسودها الغضب وأذكر ذعري لدى التفكير في أنّ موسى أيضًا قد يفارقنا، لكنّه كان يعود دوماً مع الفجر ثملًا وفخورًا بشكل مستغرب بثورته وكأنّما تزوّد قوّة جديدة. ثم يصحو موسى، أخي، من سكرته ويبقى هامدًا. فيكتفي

بالنوم وتستعيد أمّي سلطانها عليه. هي صورٌ في رأسي وهي كلّ ما يمكنني أن أقدّمه إليك. فنجان قهوة، وأعقاب سجائر وحذاؤه الرياضيّ، وأمّي تبكي وبسرعة تعود إلى رباطة جأشها مبتسمة لجارة جاءت تستعير بعض الشاي أو التوابل، متحوّلة من الاكتئاب إلى المجاملة بسرعة، تجعلني أشكّ في صدقيّتها. كلّ الأمور تدور حول موسى، وموسى يدور حول أبي الذي لم أعرفه يومًا والذي لم يورثني سوى اسم العائلة. هل تعرف ما كان اسمنا في تلك الحقبة؟ «وُلد العَسّاس»، أبناء الحارس، أو، للمزيد من الدقّة، أبناء الحارس الليليّ. عمل والدي حارسًا في مصنع لا أعرف ما هو. وفي إحدى الليالي اختفى. هذا كلّ ما في الأمر، وهذا ما يُروى. كان ذلك بعد ولادتي بالضبط، في ثلاثينيّات القرن العشرين. ولذلك أتخيّله جهمًا، متدثّرًا بمعطف أو بجلابيّة سوداء، متقوقعًا على نفسه في زاوية شبه معتمة، صامتًا وغامضًا بالنسبة إليّ.

إذًا كان موسى إلهًا متحفِّظًا قليل الكلام، زادت من ضخامته لحية كثّة وذراعان قادرتان على فكّ رقبة أيّ جندي من جنود قدامى الفراعنة. وإنّما أردت بذلك أن أخبرك أنّه يوم علمنا بمقتله، وبالظروف التي أحاطت به، لم أشعر لا بالألم ولا

بالغضب، بل بخيبة الأمل أوّلاً، وبالمذلّة، كأنّني تعرّضت لإهانة. كان أخي موسى كفيلاً بشقّ البحر ومات ميتة ضئيلة كنكرة بلا قيمة، على شاطئ امّحى اليوم من الوجود، بالقرب من اللجّة المفترض بها أن تصنع شهرته إلى الأبد!

لم أبكِه يومًا، إنّما توقّفت عن رفع نظري إلى الأعلى، إليه كما كنت أفعل. وحتّى إنّي لم أشارك لاحقًا في حرب التحرير. كنت أعلم أنّنا سنربحها سلفًا بمجرّد أنّ أهلي كانوا يُقتلون من السأم وضربات الشمس!

بالنسبة إليّ صار كلّ شيء واضحًا منذ أن تعلّمتُ القراءة والكتابة، فأنا بقِيَتْ لي أمّي فيما فقد مورسو أمّه. كنت أعرف أنّه قتل، قتل نفسه، قل انتحر. إلّا أنّ ذلك كان في الحقيقة قبل انقلاب المشهد مع دورة فجوة الإطار وتبادل الأدوار. وقبل أن أكتشف إلى أيّة درجة كنّا، أنا وهو، رفيقين في الزنزانة المقفلة نفسها حيث الأجساد مجرّد ثياب تنكّريّة.

لا تبدأ قصّة هذه الجريمة إذن بالجملة الشهيرة: «اليوم ماتت أمّي»، بل بما لم يسمعه أحد قطّ، أي بما قاله أخي موسى لأمّي قبل أن يخرج في ذلك النهار: «سأعود أبكر من العادة». كان ذلك على ما أذكر في يوم «من دون». تذكّر عالمي وروزنامته

الثنائيّة: أيّام بشائعات عن أبي، وأيّام من دونها مخصّصة للتدخين والتشاجر مع أمّي والنظر إليّ كمَتاع يجب إطعامه. في الواقع أدركت أمرًا وهو أنّني قمت بما قام به موسى، فهو حلّ مكان أبي، وأنا مكان أخي، لكنّني هنا أكذب عليك، كما كذبت على نفسي لزمنٍ طويل. فالحقيقة هي أنّه لم يكن من شأن الاستقلال إلّا أن دفع كلا الطرفين إلى تبادل الأدوار. فنحن كنّا أشباح هذا البلد فيما كان المستوطنون يُفرطون في استغلال الخيرات. ماذا اليوم؟ حسنًا، العكس تمامًا! هم يعودون إلى البلد أحيانًا، يمسكون أيدي أبناء ذريّتهم في رحلات منظّمة لفرنسيّي الجزائر أو أولاد من يسوقهم الحنين إلى المكان، محاولين أن يعثروا على شارع أو منزل أو شجرة حُفِرت على جذعها الأحرف الأولى من اسمٍ ما. صادفتُ أخيرًا مجموعة من الفرنسيّين أمام محلّ بيع التبغ في المطار. كانوا كأطياف منعزلة وخرساء ينظرون إلينا نحن العرب بصمت «كما لو أنّنا حجارة أو أشجار ميتة لا أكثر ولا أقلّ». ومع ذلك هي الآن قصّة انتهت. هذا ما يُستشعر من صمتهم.

يهمّني أن تتذكّر لبّ الموضوع حين تحقّق في جريمة ما: من هو القتيل؟ وما موقعه؟ وأريد منك أن تدوّن اسم أخي، لأنّه هو

أوّل من قُتِل ولا يزال يُقتل. أصرّ على ذلك وإلّا فمن الأفضل أن نفترق هنا. إحمِل كتابك وأنا أحمل جثّتي، وكلٌّ في طريقه. وعلى كلٍّ يا لضعة النسب! فأنا «وُلد العسّاس» وشقيق «العربيّ». تعرف، هنا في وهران يتمسّكون بالأصول. «وُلد البلد» هم أبناء المدينة الحقيقيّون، أبناء البلد. والكلّ يريد أن يكون الابن الوحيد لهذه المدينة، الأوّل والأخير والأعرق. هناك قلق اللقيط في هذه القصّة، أليس كذلك؟ كلّ واحد يحاول أن يثبت أنّه كان الأصل، هو أو أبوه أو جدّه، وأنّه أقام هنا وأنّ كلّ الآخرين غرباء، فلّاحون لا أرض لهم، رفعهم الاستقلال إلى مرتبة النبل كيفما كان. لطالما تساءلت لماذا يعيش هؤلاء الناس هاجس نبش القبور. نعم، نعم، بسبب الخوف أو التسابق على الملكيّة، من هم الأوائل الذين سكنوا هنا؟ «الجرذان» كما يقول الأكثر تشكيكًا أو آخر الوافدين. إنّها مدينة مفتوحة الساقين في اتّجاه البحر. أنظر قليلاً إلى البحر عندما تنزل صوب الأحياء القديمة في سيدي الهواري، ناحية مستديرة الإسبان، تفوح من هناك رائحة المومَس العجوز التي أتقنت الثرثرة بفعل الحنين. أنا أنزل أحيانًا نحو الحديقة الملتفّة حيث كان يتنزّه ليتان ليشرب وحيدًا ويحتكّ بمتسكّعي الأزّقة.

نعم حيث توجد تلك النباتات الغريبة والكثيفة من أشجار التين والصنوبريّات والصبّار من دون أن ننسى النخيل وسائر الأشجار المتجذّرة الضاربة في السماء كما تحت الأرض. تحتها متاهة من الواجهات الإسبانيّة والتركيّة التي زرتها. هي مقفلة على نحو عام لكنّني رأيت فيها مشهدًا مدهشًا، مشهد جذور الأشجار المعمِّرة، تبدو، مرئية من الداخل إذا جاز التعبير، ضخمة ومتعرّجة، أزهارًا عملاقة عارية كأنّها متدلّية. زُرْ هذه الحديقة. أنا أحبّ هذا المكان، لكن أشتمّ فيه أحيانًا رائحة فرج عملاق لامرأة مُرهقة. هذا يؤكّد نظرتي الخليعة، فساقا هذه المدينة مفتوحتان في اتّجاه البحر، وفخِذاها متباعدتان من خليجها إلى جبالها، حيث تقوم تلك الحديقة الطافحة العطرة. ومَنْ صمّمها هو جنرال، الجنرال ليتان، عام ١٨٤٧. من ناحيتي أقول إنّه «خصّبها»، ها، ها! حتمًا عليك أن تزورها، فتفهم لماذا يستقتل الناس هنا رغبة في أن يكون لهم أجداد معروفون. يهربون من حكم الواقع.

هل دوّنت جيّدًا؟ كان اسم أخي موسى. كان له اسم، لكنّه ظلّ يُعرف بـ«العربيّ»، وإلى الأبد، الأخير على اللائحة، حُذِف من قائمتك بطلك روبنسون. أمر غريب، أليس كذلك؟ منذ

قرون والمستوطن يفرض قَدَره مُطلِقًا الأسماء على ما يستملكه ويشجبها عمّا يزعجه. فإذا سُمّي أخي «العربيّ» فذلك لكي يقتله كما يُقتل الوقت، في التنزّه بلا هدف. ولعلمِك، أنّ أمي، بعد الاستقلال، كافحت طوال سنوات، لكي تحصل على حقّها في التعويض كأمّ شهيد. أنت ترى تمامًا أنّها لم تحصل عليه، قل لي لماذا لو سمحت؟ إستحال إثبات أنّ «العربي» كان ابنًا، وشقيقًا. إستحال إثبات أنّه عاش علمًا أنه قُتِل علنًا. إستحال إيجاد رابط وتأكيده بين موسى وموسى نفسه! فكيف تقول ذلك للإنسانيّة إذا كنت لا تُجيد تأليف الكتب؟ دأبت أمّي لبعض الوقت، في الأشهر الأولى من الاستقلال، على محاولة جمع بعض التواقيع والشهود، من دون جدوى. حتّى إنّه لم يكن لموسى جثّة!

موسى، موسى، موسى... أحبّ أحيانًا أن أكرّر هذا الاسم كيلا يختفيَ من الأبجديّات. وأنا أشدّد على ذلك وأريد منك أن تكتبه بالخطّ العريض. ها أنّ رجلاً استردّ أخيرًا اسمه الأوّل بعد خمسين عامًا من موته وولادته. أُصرّ على ذلك.

أنا سأدفع حساب أمسيتنا الأولى هذه. ماذا عن اسمك الأوّل؟

II

صباح الخير. السماء جميلة، صحيح؛ تشبه خربشات أولاد ملوّنة، أو صلوات مستجابة. أمضيْتُ ليلةً مزعجة، ليلةً من الغضب. غضب من النوع الذي يمسِك بالحنجرة، يسحق سحقًا، ويلاحقك بالسؤال نفسه، يعذِّبك لينتزع منك اعترافًا أو اسمًا. تنهض منه مرضرضًا كما بعد جلسة استجواب ومعها الإحساس بأنّك اقترفت جرم خيانة.

تسألني إذا كنتُ أريد أن أتابع؟ نعم بالتأكيد طالما سنحت لي فرصة إسقاط هذه القصّة عن كاهلي!

عندما كنت ولدًا لم يُتَح لي، ولزمن طويل، أن أصغيَ في المساء إلّا لقصّة رائعة الزيف. هي حكاية أخي القتيل موسى، التي اتَّخذت في كلّ مرة، صِيَغًا مختلفة بحسب مزاج أمّي. في ذاكرتي تقترن هذه الليالي بشتاءات المطر على ضوء سراج

ينشر ضوءًا خافتًا في كوخنا، وعلى همهمات أمّي. إقترن السرد، على ما أظنّ، بأيّام البرد ونقصان الطعام أو ربّما عندما كانت أمّي تعاني من ارتفاع مناسيب ترمّلها.

إنّك تعرف أنّ القصص تتلاشى وأنا لا أتذكّر كلّ ما روته لي تلك المرأة المسكينة، لكنّها كانت تعرف كيف تستعيد ما بقي لها من ذكريات عن والديها وعن قبيلتها الأصليّة وعمّا يُحكى بين النساء. أمورٌ لا تصدّق وقصص موسى، المارد الخفيّ، المناضل بجسده العاري ضدّ «الغاوري»، الروميّ، الفرنسيّ السمين نهّاب عرق الجبين والأرض، حتّى اتّخذ أخي موسى في مخيّلتنا، صورة الرجل المكلّف إنجاز مختلف المهمّات: ردّ الصفعة بصفعة، والانتقام لإهانةٍ ما واستعادة أرضٍ سَليب وإرغام أرباب العمل على دفع المستحقّات. عليه صار لموسى، في الأسطورة، حصانٌ وسيف وهالة شبح سيعود لتحقيق العدالة. أخيرًا لا يفوتك الأمر. ففي حياته اشتُهر كرجل غضوب وهاوي ملاكمة ضارٍ، إلّا أنّ ما كانت أمّي تسرده تركّز، على نحو أساسيّ، على أحداث اليوم الأخير في حياة موسى، اليوم الأوّل من تخليده نوعًا ما. لقد برعت أمّي في رواية تفاصيل ذلك النهار حتّى جعلته مذهلاً نابضًا

بالحياة. لم تصِف لي جريمةً وموتًا وحسب، بل أيضًا عمليّة تحوّل خارقة، تحوُّل شابّ بسيط من أحياء مدينة الجزائر الفقيرة بطلاً لا يُقهر تُنتَظر عودته كمخلّص. تعدّدت رواياتها. أحيانًا تروي أنّ موسى غادر المنزل أبكر من عادته، وقد أيقظه حلم نَذيرٌ أو صوت مرعب صاح باسمه. أحيانًا أنّه لبّى نداء بعض الأصدقاء من «وُلد الهمّة»، شباب عاطلين عن العمل من هواة التنانير والسجائر وتشطيب الوجوه. أعقبت ذلك مؤامرة غامضة انتهت بمقتل موسى. هذا كلّ ما عرفته، إذ كان لأمّي ألف حكاية وحكاية ولم تكن الحقيقة تهمّني في ذلك العمر. الأهمّ في تلك اللحظات كان هذا التقارب الجسديّ تقريبًا من أمّي والتصالح الأصمّ مع ساعات الليل الساجي. عندما نستيقظ تعود الأمور إلى مجراها، أمّي في عالمها وأنا في عالمٍ آخر.

ماذا تريدني أن أحكي لك، حضرة المحقّق، عن جريمة ارتُكِبت في كتاب؟ فأنا لا أعرف ماذا جرى في ذلك اليوم الصيفيّ المشؤوم، ما بين السادسة صباحًا والثانية بعد الظهر، ساعة الوفاة. هذا ما عندي! أساسًا عندما قُتِل موسى لم يحضر أحد لاستجوابنا. لم يُجرَ أيّ تحقيق جدّيّ. حتّى

إنّني عاجز عن تذكّر ما كنت أفعله في ذلك اليوم. في الشارع استيقظ العالم مع الشخصيّات نفسها في حيّنا. في أسفله أبناء الطاوي، وهو عجوز ثقيل الحركة، مصاب بمرض في ساقه اليسرى يجرّها جرًّا، كثير السعال مدمِن على التدخين، وقد اعتاد أن يبولَ مع الفجر على الحيطان من دون أي حرج. عرفناه كلّنا لأنه بات ساعة الحيّ، إذ إنّه كان بالغ الدقّة في مواعيد طقوسه، فإيقاع خطواته المتقطّع وسعاله كانا البشائر الأولى لإشراق الضوء على الشارع. في أعلى الحيّ، إلى اليمين الحاجّ، وهو حمل الاسم أصلًا لا لأنّه حجّ إلى مكّة، بل لأنّه اسمه الأوّل الحقيقيّ. هو أيضًا صَموت ويبدو أنّه آلى على نفسه أن يضرب والدته وينظر إلى أهل الحيّ نظرة تحدٍّ ثابتة. كان المغربيّ يقيم عند الزاوية الأولى من الزقاق المجاور، ويدير مقهى سمّاه البليدي. كان أبناؤه كذّابين ولصوصًا قادرين على سرقة كلّ الثمار من كلّ ما تقع عليه أيديهم من أشجار. لقد ابتكروا لعبة، يرمون فيها عيدان الثقاب في قناة مياه الصرف الصحّيّ الممتدّة على طول الرصيف، ولا يتعبون من ملاحقتها في مجراها، كما أذكرطيبيّة، المرأة العجوز، الضخمة الطاعنة في السنّ، التي لا أولاد لها، المزاجّية الغريبة

الأطوار، ففي طريقة نظرها إلينا، نحن أبناء النساء الأُخريات، شيء مقلق وشرس، وهذا ما يجعلنا ننفجر بالضحك. نحن جماعة القمل الصغيرة الهائمة على متن حيوانٍ جيولوجيّ عملاق، المدينة وآلاف الأزقّة فيها.

لا شيء استثنائيًا إذن في ذاك النهار. حتّى أمّي، هاوية التكهّنات والهاجسة بالأرواح، لم تستشفّ أيّ شيء خارجًا عن المألوف. نهار روتينيّ بالإجمال، مع صيحات النساء ونشر الغسيل على الشرفات والباعة المتجوّلين. ما كان لأحد أن يسمع من بعيد صوت طلقٍ ناريّ، أطلِق في أسفل المدينة على شاطئ البحر، حتّى في ساعة الشيطان، ساعة الزوال، الثانية بعد الظهر صيفًا، ساعة القيلولة. لا شيء استثنائيًا إذًا حضرة المحقّق. بالتأكيد فكّرت في الموضوع فيما بعد، وشيئًا فشيئًا، بين الآلاف من روايات أمّي وما علق بالذاكرة والتخمينات الماثلة دومًا في ذهني، رأيتُ أن لا بدّ من رواية صحيحة أكثر من غيرها. مع أنّني لست واثقًا تمامًا، ففي تلك الفترة، فاحت في بيتنا رائحة تنافس نسويّ بين أمّي وامرأة أخرى. شخصٌ لم أرَه قطّ لكنّ صدًى من صوتها برز في نبرة موسى وعينيه وفي طريقة رفضه بشدّة تلميحات أمّي. نوع

من توتّر داخل الحريم إذا جاز لي القول، مثل صراع خفيّ بين عطرٍ غريب ورائحة الطبخ المألوفة جدًا. في الحيّ كانت النسوة كلهنّ «أخوات»، يسود بينهنّ قانون احترام متبادل يحرّم حالات الحبّ الممتعة ويحصر لعبة الإغراء باحتفالات الزفاف أو بغمزات عيون بسيطة فيما النساء ينشرن الغسيل على الشرفات. بالنسبة إلى الشبيبة من عمر موسى، أفترض أنّ أخوات الحيّ كنّ يمثّلن مشاريع زيجات تكاد تقرُب من سِفاح القربى ومن دون كبير هُيام، لكن ما بين عالمنا وعالم الروميّين، تحت، في أحياء الفرنسيّين، تسكّعت أحيانًا بعض الجزائريّات بالتنانير والنهود الكواعب، نوع من نساء متفرنسات مضطربات، كنّا، نحن الصبيان الأشقياء، ننعتهنّ بالمومسات ونرجمهنّ بنظراتنا. كنّ فرائس فاتنات يُمنّينَ الأنفس باللذّة من دون حكم الزواج. غالباً ما كانت هؤلاء النسوة يستثرن حالات حبّ عاصفة ومنافسات حاقدة. هذا ما يرويه، على نحو ما، كاتبك. إلا أنّ روايته جائرة لأنّ تلك المرأة المغمورة لم تكن شقيقة موسى، ربّما في نهاية المطاف كانت واحدة من اللواتي شُغف بهنّ. لطالما رأيتُ أنّ سوء الفهم نتج من هنا، من جريمة مركّبة عُزِيت إلى ما لم يكن في الواقع سوى تسوية

حسابات دنيئة. أراد موسى أن ينقذ شرف الفتاة بتأديب بطلك، وأراد هذا الأخير أن يدافع عن نفسه فأرداه على الشاطئ بكل برودة أعصاب. في الواقع، إنّ لدى أهلي، في أحياء مدينة الجزائر الشعبيّة، مفهومًا حادًا ومضحكًا مبكيًا للشرف. يدافعون عن النساء وعن مؤخراتهنّ! أظنّ أنّهم بعدما خسروا أراضيهم وآبارهم ومواشيهم، لم يبقَ لهم سوى نسائهم. أنا أيضًا أضحك من هذا التفسير الإقطاعي، لكن أرجوك، تأمّل في ذلك. ليس الأمر بهذه الغرابة. بانحراف الأمور، تتلخّص الحكاية في كتابك بسبب عيبَيْن اثنين، النساء والبطالة. بناءً عليه، أظنّ أحيانًا أنّ موسى في أيّامه الأخيرة قد عرف امرأة، أذاقته طعم رائحة الغيرة. لم تأتِ أمي ولو مرّة على ذكر ذلك، لكن بعد الجريمة، صرت غالبًا ما ألقى ترحيبًا في الحيّ على أنّني وريث شرف مستعاد، من دون أن أفقه، أنا الولد، أسباب ذلك، لكنّني عرفت ذلك، استشعرته. فقد انتهى الأمر بأمّي، لشدّة ما روت لي من أكاذيب وتلفيقات عن موسى، أن أثارت شكوكي وصوّبت مسار تخميناتي، فأعدْتُ تركيب كلّ شيء. حالات سكر موسى المتكرّرة أخيرًا، وهذا العطر الفائح في الجو وابتسامة الفخر تلك عند التقائه أصحابه ومسامراتهم

البالغةِ الجدّية، الفكاهيّة تقريبًا، وطريقة أخي في ملاعبة سكّينه وفي إظهار وشومه؛ على كتفه اليمنى طُبعت «الشدّة في الله»، وعلى ساعده الأيسر «إفعل أو متْ» مع رسم قلبٍ محطّم. إنّه الكتاب اليتيم الذي ألّفه موسى. أقصر من نفسٍ أخير ومقتصر على ثلاث عبارات خُطَّت على أقدم ورق في العالم، على جلده. أتذكَّر وشومه كما يتذكّر الآخرون أوّل كتاب مصوّر حصلوا عليه. هل من تفاصيل أخرى؟ أوه، لم أعد أعرف: سترة عمله الزرقاء، حذاؤه الرياضي، لحيته النبويّة ويداه الضخمتان تحاولان الاحتفاظ بطيف والدي، وقصّته مع تلك المرأة البِلا اسمٍ ولا شرف. فعلًا لم أعد أعرف، حضرة «المفتِّش الجامعيّ».

صحيح! هناك المرأة الغامضة! إن وُجِدت حقًّا! ما أعرفه عنها هو اسمها الأوّل، وافترضت أنّ هذا اسمها لأنّ أخي تلفّظ به أثناء نومه في تلك الليلة، زبيدة، عشيّة مصرعه. أكان إنذارًا؟ ربّما. على كلّ حال يوم غادرنا، أنا وأمّي، الحيّ نهائيًا، كانت أمّي قد قرّرت أن تهرب من مدينة الجزائر والبحر، رأيت امرأةً تحدِّق بنا بنظراتها، وهذا ما أنا متأكّد منه. كانت ترتدي تنّورة قصيرة وجوارب عديمة الذوق وتعتمر قبّعة على غرار

نجوم السينما في تلك الحقبة، ما بدا لي منها بشكل واضح، أنّها في الأصل سمراء اللون، لكنّها صبغت شعرها باللون الأشقر. «زبيدة إلى الأبد»، ها ها! ربّما وشم أخي أيضًا هذه العبارة على مكان ما من جسده، لم أعد أعرف. أنا متأكّد من أنّها كانت هي في ذلك اليوم. كان ذلك مع الفجر ونحن نستعدّ للرحيل، أمّي وأنا، كانت تحمل بيدها جزدانًا صغيرًا أحمر وتحدّق بنا من بعيد، رأيت شفتيها وحدقتيها الواسعتين السوداوين وكأنّها أرادت بهما أن تسألنا شيئًا ما. أنا شبه متيقّن أنّها كانت هي نفسها. هذا ما أردتُه في تلك الحقبة وما قرّرته، لأن ذلك يُضفي رونقًا على وفاة أخي. كنت محتاجًا إلى أن يكون لموسى عذره وأسبابه. فأنا من دون أن أدري، وقبل سنوات من تعلّمي القراءة، رفضت سخافة مقتله واحتجت إلى قصّة أكفّنه بها. حسنًا. جذبت أمّي من حائكها وهي لم تشاهدها، لكنّها بالتأكيد شعرت بشيء ما، لأنّ وجهها تجهّم وأطلقت شتيمة بذيئة لا تصدّق. التفتُّ ورائي لأتبيّن أنّ المرأة اختفت. غادرنا. أذكر الطريق إلى حجُّوط، وعلى طرفيها محاصيل لا تخصّنا، وأذكر الشمس العارية، والمسافرين في الباص المكسوّ بالغبار. أصبت بالغثيان من رائحة المازوت

لكنّني أحببت هدير المحرّك القويّ والمطمئن تقريبًا، كأنّما هو والدٌ ينتزعنا، أمّي وأنا، من متاهة هائلة ملؤها المباني والناس المسحوقون ومدن الصفيح والأشقياء القذرون ورجال شرطة عدوانيّون وشواطئ مهلكة للعرب. بالنسبة إلينا ستظلّ المدينة دومًا مكان الجريمة، أو مكان خسارة شيء ما طاهر وعريق. نعم، مدينة الجزائر، هي في ذاكرتي مخلوقة نجسة وفاسدة، سارقة الرجال، خائنة وموحشة.

لماذا أجد نفسي اليوم غريقًا مرّة جديدة في مدينة أخرى، هنا، في وهران. سؤال جيّد. ربّما لأعاقب نفسي. أنظر قليلاً حولك، هنا، في وهران أو في أيّة مدينة أخرى، تحسّ أنّ الناس ناقمون على المدينة، وأنّهم يأتونها لنهب ما يشبه بلدًا غريبًا. المدينة غنيمة يراها الناس عاهرة شمطاء، تُشتم وتساء معاملتها وترمى بوجهها القذارات، وباستمرار يقارنون بينها وبين القرية النقيّة الطاهرة التي كانَتْها فيما مضى؛ لكن لا يعود بإمكانهم مغادرتها لأنّها المنفذ الوحيد على البحر والمكان الأبعد عن الصحراء. دوِّن عندك هذه العبارة، هي جميلة على ما أعتقد، ها ها! هناك أغنية قديمة لا تزال متداولة هنا، وتقول إنّ «البيرة عربيّة والويسكي غربيّة». هذا خطأ بالتأكيد.

أنا أصحّحها دوماً عندما أكون وحدي، فهذه الأغنية وهرانيّة، والبيرة عربيّة والويسكي أوروبيّة، والسقاة من أبناء القبائل، والشوارع فرنسيّة وأروقة العقود القديمة إسبانيّة... إلى ما لانهاية. أنا أعيش هنا منذ عشرات السنوات وأحسّ أنّني على خير ما يرام فيها. فالبحر في الأسفل، بعيد، يتكسَّر على واجهات المرفأ الضخمة. وهو لن يسرق منّي أحدًا ولن يتمكّن أبدًا من الوصول إليّ.

تراني مسرورًا! من سنوات لم أتلفّظ صراحةً باسم أخي، إلّا في رأسي أو في هذه الحانة. من عادة الناس أن يسمّوا كل مجهول «محمد»، أمّا أنا، فأُسمِّي الجميع «موسى». هو أيضًا اسم النادل هنا، يمكنك أن تناديه به، سيبتسم لذلك. من المهمّ أن تطلق اسمًا على الميت، كما على مولود جديد. هذا مهمّ، نعم. كان أخي يدعى موسى. في اليوم الأخير من حياته كان عمري سبع سنوات ولا أعرف عنه شيئًا أكثر ممّا أخبرتك به. فأنا لا أكاد أذكر اسم شارعنا في مدينة الجزائر، أذكر فقط اسم الحيّ «باب الود» وسوقه ومدافنه. كل الباقي تلاشى. لا تزال مدينة الجزائر تخيفني. هي لا تعني لي شيئًا، ولا تتذكّرني لا أنا ولا عائلتي. تخيّل أنّني في إحدى الصيفيّات،

عام ١٩٦٣ على ما أظنّ، بعد الاستقلال تمامًا، عدت إلى الجزائر العاصمة عازمًا على إجراء تحقيقي الخاصّ. لكنّني شعرت بالارتباك وعدت على أعقابي من المحطّة. كان الطقس حارًا ووجدتني سخيفًا ببذلتي المدنيّة، كأنّما في دوار كان كل ما فيها يجري سريعًا نسبة إلى حواسّي كقرويّ اعتاد دورات الحصاد والأشجار البطيئة. عدت أدراجي على الفور، أمّا السبب؟ فجليٌّ يا صديقي الشاب. قلت في نفسي إن أنا عثرت على بيتنا القديم، فسيعثر الموت علينا، أمّي وأنا. حينها سأتذكّر البحر والظلم، يا لي من متفصحنٍ أعدّ جوابه من زمن طويل، لكنّها الحقيقة أيضًا.

تعالَ لنرى ولأحاول أن أتذكّر بالتحديد... كيف تبلّغنا خبر مقتل موسى؟ أذكر نوعًا من غيمة خفيّة خيّمت على شارعنا، وكان بعض الكبار المغضَبين يتكلّمون بأصوات مرتفعة ويلوّحون بأيديهم. أخبرتني أمّي أوّلًا أن أحد الغاوري قتل أحد أولاد جارنا، فيما كان يدافع عن امرأة عربيّة وشرفها. لم يتسلّل القلق إلى منزلنا إلّا ليلًا وبدأت أمّي تدرك شيئًا فشيئًا ما جرى، على ما أظنّ. أنا كذلك على الأرجح. ثمّ سمعت فجأة أنّةً طويلة اشتدّت وتحوّلت عويلًا. صرخة حطّمت أثاثنا

وفجّرت جدراننا ثمّ الحيّ برمّته، وتركتني وحيدًا. أذكر أنّني أجهشت في البكاء بلا سبب، فقط لأنّ الجميع كانوا ينظرون إليّ. إختفت أمّي ووجدتُ نفسي مدفوعًا إلى الخارج، كمن أقصيَ تحت ضغط ظرف أهمّ، كارثة جماعيّة. أمرٌ غريب، أليس كذلك؟ تراءى لي، بشيء من الغموض، أنّ الأمر يتعلّق بأبي، أنّه توفّي بكلّ بساطة هذه المرّة واشتدّ بكائي. طال ليلنا ولم ينم أحد، وتوالى الناس على الحضور لتقديم التعازي. صار الكبار يكلّمونني بأصوات خفيضة. عندما يعصي عليّ فهم ما يقولون أكتفي بالنظر إلى حدقاتهم القاسية، وإلى حركات أيديهم وأحذيتهم، أحذية الفقراء. مع الفجر عضّني الجوع وانتهى بي الأمر إلى الإغفاء لا أعرف أين. عبثًا حاولت أن أغوص في ذاكرتي، على ذلك اليوم، وغداته، أراها خاوية، اللهم إلّا من رائحة الكسكس. كان يومًا مجيدًا، عظيمًا ورحبًا مثل وادٍ سحيق سرحت فيه مع غيري من الصبيان الوقورين، الذين أبدوا لي احترامًا استحققته بسبب وضعي الجديد كـ«شقيق البطل». لا شيء بعد ذلك. لم يعد من وجود لليوم الأخير في حياة رجل، خارج صفحات الكتب وما ترويه، ما من تحيّة، اللهمّ إلا فقاقيع صابون سرعان ما

تنفجر. هذا خير دليل على حياتنا الفارغة، صديقي العزيز، لا حقّ فيها لأحد بيومٍ أخير، إنّما بوضع حدٍّ لحياته عن طريق الخطأ وحسب.

أنا عائد إلى المنزل. وأنت؟

=

نعم، كان النادل يدعى موسى، في ذهني على الأقلّ، وهذا الآخر، في أقصى الحانة، سمّيته هو أيضًا موسى. بيد أنّ قصّته مختلفة تمامًا. فهو أكبر سنًّا، وبالتأكيد نصف أرمل أو نصف متزوّج. تأمّل بشرته، تراها شبيهةً بورق الرّقّ. هو مفتّش سابق للّغة الفرنسيّة في وزارة التربيّة. أعرفه. لا أحبّ أن تلتقي أعيننا، لأنّه سيستغلّ ذلك للتسلّل إلى رأسي ويسيطر عليه ويهذر بدلًا منّي ساردًا عليّ قصّة حياته. أنا أترك مسافة بيني وبين الناس التعساء. والآخران ورائي؟ هما من المكسر نفسه. فالحانات التي لا تزال مفتوحة في هذا البلد هي كناية عن أحواض تسبح فيها أسماك أثقلتها الهموم وأهبطتها إلى القاع. يأتي الناس إلى هنا عندما يريدون الهرب من أسباب رتّبها كما تشاء: من العمر و من الله أو من زوجاتهم. حسنًا أفترض أنّك تعرف شيئًا عن هذا النوع من الأماكن، لكن

لا تعرف أنّهم يقفلون كلّ الحانات في البلاد، منذ بعض الوقت، وأنّ الجميع يلتقي فيها مثل جرذان ضاقت بها السبل تقفز من سفينة تغرق إلى سفينة أخرى. عندما لا تبقى سوى حانة واحدة يقع التزاحم، وهم كُثرٌ وعجزة. حتّى لتبدو هذه اللحظة مثل دينونة حقيقية. أنا أدعوك إليها فلن يتأخّر الأمر. أتعرف ماذا تسمّى هذه الحانة بين الأصحاب؟ التيتانيك. لكن على لوحة اسم المحل كُتب اسم جبل، جبل زندل. فكيف السبيل إلى الفهم؟

لا، اليوم لا أريد التكلّم عن أخي. سنتأمّل وحسب كلّ الآخرين ممّن يُدعون موسى في هذا الماخور، واحدًا واحدًا، ونتخيّل، كما أفعل في الغالب، كيف نجوا من رصاصة أطلقت في حرارة الشمس، أو كيف تصرّفوا كيلا يلتقوا كاتبك، أو أخيرًا كيف تصرّفوا لكي يبقوا خارج عداد الموتى حتّى الآن. هم بالآلاف صدّقني. يجرجرون أذيالهم منذ الاستقلال، يتنقّلون على الشواطئ ويدفنون أمّهاتهم الميّتات ويشردون بالنظر خارج شرفاتهم طوال ساعات. اللعنة اللعنة! هذه الحانة تذكّرني أحيانًا بمأوى والدة مورسو، السكون نفسه، الشيخوخة الزاحفة ببطء نفسها، وطقوس نهاية العمر

نفسها. بدأتُ الشرب في وقت أبكر قليلًا ولي عذري، هي مشاكل الحرقة من معدتي التي تصيبني ليلًا ...هل عندك أخ؟ لا. حسنًا.

نعم أحبّ هذه المدينة حتّى وإن كنت مولعًا بنعتها بكلّ الصفات السيّئة التي لا أنجح في قولها عن النساء. هي مقصودة من أجل المال أو البحر أو الحبّ. لم يولّد أحد فيها، فالكلّ يأتونها من وراء الجبل الوحيد في هذه الناحية.

وأنا أتساءل أساسًا من أرسلك وكيف عثرت عليّ. أنت تعرف أنّ الأمر لا يكاد يكون معقولًا، فعلى مدى سنوات لم يصدّقنا أحد، أمّي وأنا، حتّى انتهى بنا الأمر نحن الاثنين أن ندفن موسى فعلًا. نعم، نعم، سأشرح لك الأمر.

آه، ها هو مجدّدًا... لا، لا تلتفت إلى الوراء، أنا أسمّيه «طيف الزجاجة». هو يأتي إلى هنا كلّ يوم تقريبًا. بمقدار ما آتي، فنتبادل التحيّة من دون أن يوجّه أحدنا الكلام إلى الآخر. سأحدّثك عن الأمر لاحقًا.

III

اليوم، هرمتْ أمّي حتّى باتت تشبه أمّها، أو ربّما جدّة أمّها أو جدّة جدّتها. عندما نتجاوز عمرًا ما، تخلع علينا الشيخوخة ملامحَ أسلافنا مجتمعين في تدافعنا الرخو صوب تقمّصهم. ربّما هذا هو في النهاية العالم الآخر، دهليز لا نهاية له يصطفّ فيه كل أسلافنا واحدًا وراء الآخر؛ وهم يترقّبون ببساطة، ملتفتين إلى من لا يزال حيّا، دون كلام ولا حركات، بنظرة صبورة، وأعين شاخصة إلى تاريخ محدَّد.

تسكن أمّي في ما بات يشبه المأوى، أعني في بيتها الصغير الموحش، تجرجر جسدها الضئيل المتكوّم وكأنّه حقيبة سفرها الأخيرة. تنقُّلُها هذا مجحفٌ ولا مقارنة بينه وبين تاريخها. هي إذًا مجلس من الأسلاف المتجمّعين في وجه واحد، قبالتي في شكل دائريّ، كأنما لمحاكمتي أو لسؤالي

إن كنت قد عثرتُ أخيرًا على زوجة. لا أعرف كم عمر أمّي، وهي أيضًا تجهل عمري.

قبل الاستقلال كنّا نعيش من دون تأريخ دقيق على وتيرة الولادات والأوبئة وفترات المجاعة، إلخ. ماتت جدّتي بالتيفوئيد، وكان هذا الحدث بمثابة التقويم. رَحَلَ والدي في الأوّل من شهر كانون الأوّل (ديسمبر)، على ما أظنّ، ومذّاك بات هذا الموعد مؤشّرًا على حرارة القلب، إذا جاز لي التعبير، أو بدايات مواسم الصقيع.

أتريد الحقيقة؟ أنا نادرًا ما أزور أمّي اليوم. فهي تسكن بيتًا تحت السماء تحوم حوله جثّة وشجرة ليمون حامض، وتمضي نهارها في كنس كلّ زاوية فيه. هي تمحو الآثار. آثار مَنْ؟ وماذا؟ حسنًا هي آثار سرّنا المكنون، التي ذات ليلة صيف صيّرتني رجلًا ناضجًا وغيّرت حياتي رأسًا على عقب... تحلَّ بالصبر، سأروي لك. فأمّي تعيش في قرية، تدعى حجُّوط، مارينغو سابقًا، على بعد سبعين كيلومترًا من العاصمة. كنت فيها قد أنهيت النصف الثاني من طفولتي، وأمضيت القسم الأوّل من شبابي قبل أن أتابع دراستي في العاصمة الجزائر وأتعلّم مهنة (في دائرة تفتيش أملاك الدولة)

التي رجعت إلى ممارستها في حجُوط ، والتي برتابتها فتحت المجال واسعًا أمام تأمّلاتي . لقد تركنا ، أمّي وأنا ، أكبر مسافة ممكنة بيننا وبين هدير الأمواج .

لنعدْ إلى تسلسل الأحداث . غادرنا مدينة الجزائر ، في اليوم المعلوم الذي أنا واثق أنّني رأيت فيه زبيدة ، لنقيم عند عمٍّ لي ، لم يكد يقبل بنا حتّى أقمنا في كوخ حقير قبل أن يطردنا منه أولئك الذين آوونا فيه . ثمّ عشنا في تخشيبة في محيط مزرعة إحدى المستوطنات ، حيث خدمت أمّي في مختلف الأعمال وعملت ، أنا الصبيّ ، بالسخرة . كان صاحب المزرعة ألزاسيًا (من شمال فرنسا) سمينًا أظنّ أنّه قضى مختنقًا بشحومه . ويقال عنه إنّه كان يعذّب الكسالى بالجلوس فوق صدورهم ، وإنّ جثّة عربيٍّ مقيمة في عنقه ، إذ علقت بالعرض في حلقه ، بعد أن ابتلعها ، منكمشة على نفسها بفعل الموت والغضاريف . أحتفظ ، من تلك الحقبة ، بطيف كاهن عجوز حمل إلينا الطعام أحيانًا ، وبكيس من قماش القنّب خاطته لي أمّي ثوبًا ، وبأكلة السَميد في الأيّام الحافلة . لا أريد أن أقصّ عليك شقاءنا ، في تلك الحقبة لم يكن هناك إلّا الجوع ، لا الظلم . في المساء كنّا نلعب بالكلل ، وفي اليوم التالي إذا لم

يحضر أحد الأولاد فهذا يعني أنّه مات، ويستمرّ اللعب. كان زمن الأوبئة والمجاعات. كانت الحياة في الأرياف قاسية تتكشّف عمّا تخفيه المدن، أي موت هذا البلد جوعًا. كنت أتوجّس، خصوصًا في الليل، من خطى الرجال المبهمة، أولئك الذين يعرفون أنّ أمّي تعيش دون رجل يحميها. أمضيت ليالي سهر وحراسة ملتصقًا بها، حتى بتّ، بكل معنى الكلمة، وريث والدي، «وُلد العسّاس».

الغريب أنّنا طفنا في كل أرجاء حجُّوط على مدى سنوات قبل أن نجد سقفًا متينًا يؤوينا. كم تكبّدت أمّي من الحِيل والصبر لكي تنجح في إيجاد بيتنا؟ لا أعرف. في كلّ الأحوال هي عرفت كيف تضرب ضربتها وأنا أعترف لها بحسن ذوقها؟ سأدعوك إلى هذا المنزل يوم دفنها! فهي نجحت في أن تحصل على عمل كخادمة في البيت، وانتظرت الاستقلال وأنا ما زلت عبئًا عليها. في الحقيقة، البيت ملك لأسرة مستوطنين غادروا على عجل وتمكنّا من احتلاله في الأيّام الأولى من الاستقلال. هو مؤلّف من ثلاث غرف كُسِيَت جدرانها بالورق الملوّن، وفي فنائه شجرة ليمون حامض قزمة مشرئبّة صوب السماء. في جواره حظيرتان صغيرتان وبوابة خشبيّة

عند مدخله. أتذكّر الدالية التي كانت تنشر ظلَّها على طول الجدران وزقزقات العصافير الصاخبة. من قبلُ كنّا، أمّي وأنا نسكن في حجرة صغيرة مجاورة له، وهي اليوم دكّان سمانة لأحد الجيران. أتعرف؟ أنا لا أحبّ أن أتذكّر تلك الحقبة، إذ أبدو كالمندفع إلى استدرار التعاطف. في الخامسة عشرة من عمري عملت في المزارع. في أحد الأيّام استيقظت قبل الفجر، وكان العمل قليلًا والمزرعة الأقرب تقع على بعد ثلاثة كيلومترات من القرية. هل تعرف كيف حصلت على العمل؟ سأبوح لك بذلك، فقد عمدت إلى ثقب إطارات درّاجة عامل آخر لكي أتقدّم من العمل أبكر منه وآخذ مكانه. إي، نعم، إنّه الجوع. لا أريد أن ألعب دور الضحيّة لكنّ العشرة الأمتار التي تفصل بين حجرتنا الصغيرة ومنزل المستوطن كلّفتنا سنوات من السير عبر المعوِّقات، سير مثقل، كما في الكوابيس، بالأوحال والرمال المتحرّكة. لقد استغرق الأمر على ما أظنّ عشر سنوات، لكي نضع يدنا على هذا البيت ونعلنه محرَّرًا، ملكَنا! نعم، نعم، قمنا بما فعله الجميع، فمنذ أيّام الحرّية الأولى خلعنا الباب وأخذنا الأواني والشمعدانات. ما الذي جرى؟ إنّها قصّة تطول. أراني أشرد قليلًا.

كانت غرف هذا المنزل معتمة دائمًا، سيّئة الإنارة حتّى بدت كأنّها تؤوي سهرة مأتم. أنا أزوره كلّ ثلاثة أشهر، فأجلس مهوِّمًا أنظر إلى أمي لساعة أو ساعتين. بعدها لا يحدث أمرٌ جديد. أشرب فنجان قهوة مُرَّة ثمّ أعود أدراجي وأسلك طريق إحدى الحانات حيث أنتظر من جديد. في حجُّوط، المنظر هو نفسه كما في الحقبة التي شيّع فيها بطلك نعش أمّه المزعومة. بدا لي أنّه لم يتغيَّر شيء باستثناء البنايات الجديدة المشادة بحجر الباطون وواجهات المخازن والبطالة الثقيلة السائدة في كلّ مكان. أأنا أحنّ إلى جزائر الزمن الفرنسيّ؟ كلا! يبدو أنّك لم تفهم شيئًا. أردت بالضبط أن أقول لك إنّنا، نحن العرب، أعطينا في تلك الحقبة انطباعًا أنّنا ننتظر، ولا ندور في حلقة مفرغة كما هي الحال اليوم. أنا حفظت حجُّوط وضواحيها عن ظهر قلب، حتّى أبسط الحجارة على طرقاتها. لقد تضخّمت القرية وباتت أقلّ تنظيمًا. إختفى منها شجر السرو، والتّلال مع انتشار الفيلّات التي لم يُنجز بناؤها بعد. وامّحت الطرقات في الحقول، هذا إذا بقيت هناك حقول.

أعتقد أنّه في هذا المكان يمكن، أثناء الحياة، الاقتراب إلى

أقصى حدّ من الشمس دون الارتفاع عن الأرض، أقلّه في ذكريات طفولتي. أمّا اليوم فهذا المكان لم أعد أحبّه، ولكَمْ أخشى يوم اضطراري إلى العودة إليه لدفن أمّي، هي التي يبدو أنّها لا تريد أن تموت. ففي عمرها لم يعد للموت معنى. في أحد الأيّام طرحت على نفسي سؤالًا، لا أنت ولا قومك طرحتموه على أنفسكم، مع أنّه مفتاح اللغز الأوّل. أين يقع مدفن والدة بطلك؟ نعم، هناك في حجُّوط كما يؤكّد، لكن أين بالتحديد؟ ومن زاره يومًا؟ ومن انطلق من الكتاب إلى المأوى؟ ومن قرأ بدقّة المكتوب على الضريح؟ لا أحد على ما بدا لي. أمّا أنا، فقد فتّشت عن هذا القبر ولم أجده قطّ. القبور بالجملة في هذه القرية، وتحمل أسماء متشابهة، لكن اسم والدة القاتل لم يُعثر عليه بعد. نعم هناك بالتأكيد تفسير محتمل، وهو أنّ القضاء على آثار الاستعمار عندنا قد شمل حتّى قبور المستوطنين، وكثيرًا ما كنّا نرى الأولاد يلعبون كرة القدم بالجماجم المنبوشة، أعرف ذلك. لقد أصبح هذا تقليدًا هنا تقريبًا، إذ عندما يهرب المستوطنون يخلّفون لنا ثلاثة أشياء: العِظام والطرقات والكلمات، أو القتلى... إلا أنّني لم أعثر قطّ على قبر أمّه. فهل إنّ بطلك كذّب في ما خصّ

أصوله؟ هذا ما أظنّه. ربّما هذا ما يفسّر لامبالاته الخرافيّة وفتوره اللّامعقول في بلد تغمره الشمس وشجر التين. ربّما لم تكن أمّه هي تلك التي نظنّ. أعرف أنّني أتفوّه بالترّهات لكنّي أُقسم لك إنّ شكّي ليس من دون أساس. فقد ذكر بطلك الكثير من التفاصيل عن هذا الدفن لكأنّه أراد الانتقال من المحضر إلى الحكاية الخرافيّة المنسوجة يدويًا، حتّى يُشتبه بأنّه تعمّد عدم البوح. حجّة مكتملة تمامًا لا ذكرى. هل تدرك ما يعنيه هذا إذا أثبتُّ لك ما أنا قائله، إذا برهنت لك أنّ بطلك لم يحضر حتّى دفن أمّه؟ فأنا، بعد سنوات على ذلك، سألت بعض مواليد حجُّوط وتبيّن لي أنّ أحدًا لا يتذكّر هذا الاسم أو امرأة توفّيت في مأوى عجزة أو موكب جنازة مسيحيّين تحت الشّمس. الأمّ الوحيدة التي تؤكّد أنّ هذه القصّة ليست مجرّد ذريعة هي أمّي، وهي لا تزال تكنس فناء منزلنا حول شجرة الليمون الحامض.

هل تريد أن أبوح لك بسرّي، أو بالأحرى سرّنا، أمّي وأنا؟ حسنًا، فأنا هناك، في حجُّوط، اضطرّني القمر، في ليلة رهيبة، إلى إنجاز العمل الذي بدأه بطلك تحت الشمس. لكلٍّ عذره، هذا كوكب وهذه أمّ. هي حفرة لا أكفّ عن تعميقها.

يا إلهي كم أشعر بالضيق! أنظر إليك وأتساءل إن كنتَ جديرًا بالثقة. هل ستصدّق هذه الرواية المختلفة للوقائع، المجهولة كلّيًا؟ آه، أنا متردِّد، لا أعرف. لا، حسناً، ليس الآن، سنرى لاحقًا، ربّما في أحد الأيّام. أين المآل بعد الموت؟ ضائع أنا. أعتقد أنّك تطلب وقائع لا ملاحظات، أليس كذلك؟

بعد مقتل موسى، ونحن ما زلنا مقيمين في مدينة الجزائر، حوّلت أمّي غضبها حدادًا طويلًا مشهديًّا، ما أكسبها تعاطف الجارات ونوعًا من الشرعيّة التي سمحت لها بالخروج إلى الشارع والاختلاط بالرجال والعمل في منازل الناس، وأن تبيع التوابل وتدبّر المنزل من دون أن تواجه خطر إثارة الظنون. إنطفأت أنوثتها ومعها شكوك الرجال. في تلك الحقبة، قليلاً ما كنت أراها، وغالبًا ما كنت أمضي نهاري في انتظارها فيما هي تذرع المدينة مجريةً التحقيق في مقتل موسى، مستجوبة من عرفوه أو تعرّفوا إليه أو التقوه للمرّة الأخيرة عام ١٩٤٢ ذاك. كانت بعض الجارات يطعمْنَني، وسائر أولاد الأحياء يُبدون لي ذاك الاحترام الذي يقابَل به المصابون بمرض خطير أو الناس المحطّمون، وقد نعمت بوضع «شقيق القتيل» هذا، وفي الواقع لم أبدأ أعاني منه إلا مع اقترابي من سنّ البلوغ،

عندما تعلّمت القراءة وفهمت المصير الظالم الذي لاقاه أخي، القتيل في كتاب.

بعد اختفائه بات للزمن نظام آخر بالنسبة إليّ. فقد عشت حرّية مطلقة دامت أربعين يومًا تحديدًا، إذ إنّ الدفن لم يجرِ إلا بعد هذه المدّة لأنّ إمام الحيّ وقع في الإرباك. في العادة لا تقام للمفقود مراسم دفن... ذاك أنّه لم يُعثر قطّ على جثّة موسى، كما اكتشفت مرّة بعد أخرى، فإنّ أمّي فتّشت عن موسى في كلّ مكان، في المشرحة وفي مخفر شرطة بلكور، ودقّت كلّ الأبواب، لكن عبثًا. إختفى موسى، مات حكمًا وبإتقان عصيٍّ على الفهم. في موضع الرمل والملح هذا، كانا اثنين، هو والقاتل، اثنين فقط. أمّا عن القاتل، فلم نعرف عنه شيئًا سوى أنّه «روميّ»، «غريب». وقد أَطْلع بعض أهل الحيّ أمّي على صورته في صحيفة، لكنّه بالنسبة إلينا كان يمثّل كلّ المستوطنين الذين سمنوا بعد الكثير من المواسم المسلوبة. لم يتميّز بِسِمَاتٍ خاصّة سوى بسيجارته المعلّقة ما بين شفتيه، وسرعان ما نُسيت ملامحه لتختلط بملامح كل أبناء جِلدته.

زارت أمّي مدافن كثيرة، ولاحقت بإلحاح أصحاب أخي القدامى، وأرادت أن تكلّم بطلك الذي أودع كلامه في دفتر

يوميّات وُجد تحت بساط زنزانته. عبثًا. لقد أكسبها ذلك موهبة الثرثرة وتحوّل حدادها مسرحيّة هزليّة مذهلة أدّتها بإبداع وأتقنتها حتى باتت تُحفة. كأنّها عاشت ترمّلها مرّة ثانية، وجعلت من مأساتها نوعًا من متاجرة فرضت بها على من قاربوها أن يُبدوا تعاطفهم، وتظاهرت بمجموعة من الأمراض لكي تجمع حولها، مع كلّ صداع يصيبها، كلّ قبيلة الجارات. غالبًا ما كانت تشير إليّ بإصبعها كما لو أنّني ولد يتيم، ثمّ سرعان ما تسحب عنّي عطفها لتحلّ مكانه عينان منطويتان على الشبهة والنظرة الآمرة القاسية. الغريب في الأمر أنّني عوملت كَمَيْت فيما عومل أخي موسى كحيّ تسخّن له القهوة في آخر النهار ويعدّ سريره ويُعرف من خطواته، حتّى من بعيد، من أسفل مدينة الجزائر، في الأحياء التي كانت مقفلة في وجوهنا في تلك الحقبة. لقد حُكم عليّ بدور ثانويّ لأنّه لم يكن عندي شيء مميَّز أقدّمه. صرت أشعر، في آنٍ واحد، بأنّني مخطئ لأنّني على قيد الحياة، ومسؤول عن حياة ليست حياتي! صرت أنا العسّاس، مثل أبي، السّاهر على جسدٍ آخر.

ما أذكره أيضًا هو هذا الدفن الخارج عن المألوف. الكثير

من الناس ومداولات آخر الليل ونحن الأولاد مأخوذون بالمصابيح والشموع الكثيرة، ثمّ القبر الفارغ وصلاة الغائب. فقد أُعلِنت وفاة موسى مجروفًا بالمياه بعد مهلة الأربعين يومًا الدينيّة. أُنجز هذا الواجب العبثيّ الذي قضى به الإسلام للغرقى وتفرّقَ شمل الناس، إلا أمّي وأنا.

إنّه الصباح، وأنا تحت لحافي لا أزال أشعر بالبرد وأرتجف. مات موسى قبل أسابيع. تناهت إليّ أصوات الخارج، درّاجة تمرّ، وسعال الطاوي، العجوز الكثير السعال، وصرير الكراسي وأبواب السحاب المعدنية تُرفع. كلّ صوت يحمل إليّ مزاجًا، وحتّى نوع الغسيل الذي سينشر في ذلك اليوم. طُرق على باب بيتنا، حضرت بعض النسوة لزيارة أمّي. أنا حفظت السيناريو عن ظهر قلب، صمتٌ تتبعه دموع، ثمّ معانقات، ودموع من نوع آخر، ثمّ إحدى النسوة تزيح الستارة التي تقسم الغرفة اثنتين وتنظر إليّ، تبتسم لي دونما اهتمام، وتمدّ يدها إلى وعاء القهوة المطحونة أو إلى شيء آخر. يدوم كل ذلك حتّى الظهر. فأنعم إذّاك بحرية مطلقة، لكن أبقى غير مرئيّ، ما يقلقني قليلًا. ويدوم الأمر إلى ما بعد الظهر، إلى ما بعد طقس المنديل المبلول بماء زهر الليمون مشدودًا

على الرأس، وبعد تأوّهات لامتناهية، وصمت طويل، طويل جدّاً، تتنبَّه أمّي إلى وجودي وتضمّني إلى صدرها، لكنّني أعرف أنّها تريد أن تجد موسى فيّ، لا أنا، فأدعها على هواها.

صارت أمّي شرسة نوعًا ما، واكتسبت عادات غريبة، كأن تغسل جسمها كلّيًا في غالب الأحيان وتقصد الحمّام كلّما تيسّر لها ذلك لتعود منه ذاهلة متأوّهة. تكرَّرت زياراتها إلى ضريح سِيدِي عبد الرحمن، وذلك في أيّام الخميس لأنّ الجمعة هو يوم الله. وما أذكره، على نحو غامض، عن هذا المكان هو قطع القماش الخضراء والثريّا الضخمة وما يختلط برائحة البخور من عطور النساء الخانقة وهنّ ينتحبْنَ ويتضرَّعن طالبات، هذه زوجًا، وهذه الخصوبة، وأخرى الحبّ أو الانتقام. هو عالمٌ مبهَم ودافئ تُهمَس فيه همسًا الأسماء والتيمّنات. تصوَّر قليلًا هذه المرأة وقد انتُزعت من قبيلتها وأهدِيت إلى رجل لا يعرفها لم يلبث أن هرب، والدة قتيل وولد آخر صموت لا تصدر عنه أيّة إشارة، ترمّلت مرّتين وأجبرت على العمل عند الأجانب لكي تؤمّن عيشها؛ لقد راقها دور الضحيّة. أقسم لك إنني أتفهَّمُ بطلك عندما يسترسل في الكلام عن أمّه أكثر منه عن أخي. أمرٌ غريب، أليس كذلك؟ وهل أنا أحببتها؟ نعم، بالتأكيد. فعندنا

الأم هي نصف العالم، لكنّني لا أسامحها أبدًا على طريقة معاملتها لي. فكأنّها نقمت عليّ بسبب موتٍ طالما رفضتُ في أعماقي تحمّل تبعاته، ولذلك عاقبتني. لا أعلم، كنت في ذاتي أقاوم، وهذا ما تلمّسَتْه هي بغموض.

بَرَعَت أمّي في فنّ إحياء الأشباح، وفي المقابل في تدمير أقاربها، تغرقهم تحت دفق حكاياتها الملفّقة المرعبة. أؤكّد لك يا صديقي أنّها كانت قادرة على أن تروي لك أفضل منّي قصّة عائلتنا وأخي، هي التي لا تعرف القراءة. وكانت تكذب ليس بقصد التضليل، بل بغية تصحيح الواقع والتخفيف من العبثيّة التي ضربت عالمها وعالمي. لقد دمّرها اختفاء موسى، لكنّه، وللمفارقة، علّمها طرق متعة منحرِفة، متعة الاستسلام لحداد لا نهاية له. فلزمنٍ طويل لم يمضِ عام من دون أنّ تُقسم أمي إنّها عثرت على جثّة موسى، أو سمعت أنفاسه أو خطاه، أو عرفت آثار حذائه. هذا ما أشعرني، لمدّة طويلة، بخجل لا يوصف، وهو ما حملني لاحقًا على تعلّم لغة قادرة على الفصل بين هذيان أمّي وبيني. نعم، اللغة. تلك التي أقرؤها، تلك التي أتكلّم بها اليوم لا لغتها. فلغتها هي، خصبة، منمّقة، مليئة بالحيوية، بالقفزات والارتجالات المفتقرة إلى الدّقة.

دام حزن أمّي طويلًا حتّى احتاج الأمر لغة أخرى جديدة للتعبير عنه. فهي، في هذه اللغة، تكلّمت كنبيّ، واستدعت ندّابات من صنع الخيال، ولم تعِش شيئًا آخر سوى هذه الفضيحة: زوجٌ ذهب مع الريح وابنٌ أخذته الأمواج. إضطررت إلى تعلّم لغة غير هذه اللغة لكي أصمد في الحياة. هي هذه اللغة التي أتكلّم بها الآن. فما إن بلغت الخامسة عشرة من عمري تقديرًا، تاريخ انكفائنا إلى حجُّوط، حتّى أصبحت تلميذًا رزينًا وجدّيًا. وقد منحتني كتب بطلك ولغته تدريجيًا إمكانيّة تسمية الأشياء بطريقة أخرى، وتنظيم العالم بكلماتي أنا.

هيّا، نادِ موسى لكي يسكب لنا مجدّدًا. لقد هبط الليل ولم يبقَ لنا سوى بضع ساعات قبل أن تُقفل الحانة. الوقت يداهمنا.

في حجُّوط اكتشفت أيضًا الشجر والسماء في متناول اليد. وقُبِلت أخيرًا في مدرسة يرتادها صغار من أبناء بلدي ما أنساني أمّي قليلًا وطريقتها المخيفة في مراقبتي وأنا أنمو وآكل، كما لو أنّها تُعدّني لتضحية ما. كانت سنوات غريبة، أحسست فيها بأنّني أعيش عندما أكون في الشارع أو في المدرسة أو في المزارع، حيث عملت، وبأنّني أعود إلى قبر أو إلى رحِم مريض عندما أرجع إلى البيت، حيث تنتظرني أمّي وموسى،

كلٌّ على طريقته. كنت إلى حدٍّ ما مضطرًا إلى تبرير الساعات الضائعة دون أن أشحذ فيها سكّين العائلة للثأر. في الحيّ كان يُنظَر إلى كوخنا كمكان كئيب، وسائر الأولاد ينادونني يا ابن الأرملة. كان الناس يخشون أمّي، لكنهم اشتبهوا بأنّها ارتكبت جريمة غريبة، وإلّا فلماذا غادرت المدينة لتأتي إلى هنا وتجلي صحون الروميّين؟ أقول لنفسي إنّنا عندما وصلنا إلى حجُّوط لفتنا أنظار أهل القرية: أمّ تخبّئ في صدرها قُصاصتَيْن من صحيفة، مطويّتين بكل عناية، ومراهق خافض الرأس، حافي القدمَيْن وأمتعة يحملها المُعدَمون. أمّا القاتل، فلا بدّ أنّه كان في تلك الفترة يرقى آخر درجات مجده. كان ذلك في خمسينيّات القرن الماضي، وكان للفرنسيّات، بفساتينهنّ القصيرة المزهّرة، صدور معرَّضة للسعات الشمس.

هل أحكي لك قليلًا عن حجُّوط؟ عن أناس، غير أمّي، مَلَؤوا عالمي؟ أتذكّر قامات «المرابطين»، أولئك الخدّام الذين كانوا، من على المنابر العالية، يقيمون المراسم في الأضرحة، والذين، بعد هجرتهم زمن الخصب في سهول مسيّجة، كانوا يعملون في قطف العنب أو ينظّفون الآبار. هناك أيضًا جماعة «الملّاحين»، ويمكنك ترجمتها بنفسك، «رجال الملح»، من

سلالة أولئك اليهود في المغرب القديم، المضطرّين إلى أن يحفظوا، في الملح طبعًا، الرؤوس التي قطعها السلطان من أبناء قومهم. وهل من شهود آخرين على طفولتي؟ لم أعد أعرف الكثير، في رأسي ذكريات متفكّكة عن شجارات بين الجيران، وعن سرقة البطانيّات والثياب. لقد علّمني أحد أبناء المرابطين كيف أرجع القهقرى إلى البيت، بعد القيام بالسرقة، كيلا يتمكّن حارس القرية من تعقّب المذنب عبر آثار قدميه! كما كانت أسماء العائلات مبهمة وواهية بقدر تواريخ الولادة في تلك الحقبة، سبق أن قلت لك. فأنا لقّبت بـ«ولد العسّاس». أمّي هي «الأرملة»، وذاك وضع لا تصنيف له، من شأنه الاحتفاء بحالة حِداد أبديّ، وهي زوجة الموت أكثر منها قرينة المَيْت.

نعم لا تزال أمّي اليوم على قيد الحياة، وما أنا مبالٍ بذلك بتاتًا. تأكّد أنّني لذلك ناقم على نفسي، لكنّني لن أسامحها أبدًا. فأنا كنت غرَضًا بين يديها، لا ابنها. لم تعد تتفوّه بشيء، ربّما لأنّه لم يبقَ ما تقتطعه من جسد موسى. يعاودني تكرارًا دبيبها تحت جلدي، وطريقتها في تولّي الكلام بدلاً عنّي عندما يزورنا أحد، وقوّتها وأذاها ونظرتها المجنونة عندما يتملّكها

الغضب.

سأصطحبك معي لحضور دفنها.

=

ها إنّ الليل أدار رأس السماء نحو اللّانهاية. هو ظهر الله ينكشف لك عندما لا تبقى هناك شمس تبهر بصرك. الصمت. أكره هذه الكلمة لأنّه تُسمع عبرها ضوضاء تعريفاتها المتعدّدة. همسة خشنة تعبر ذاكرتي كلَّ مرّة يصمت فيها العالم.

هل تشرب كأسًا أخرى أم تريد الذهاب؟ القرار لك. إشرب طالما تبقّى وقت للشرب. فبعد سنوات سيخيّم الصمت والماء. أنظر، ها هو «طيف القنّينة» مجدَّدًا. هذا الرجل غالبًا ما ألتقيه هنا، وهو شابّ، في العقد الرابع تقريبًا، تبدو عليه أمارات الذكاء، لكنّه خارج ثوابت عصره اليقينيّة. نعم، يأتي مثلي كلّ ليلة. أنا آخذ طرفًا من البار، وهو الطرف الآخر بشكل ما، ناحية النوافذ. لا تلتفت إلى الوراء، لا، وإلّا فسيختفي.

IV

سبق لي أن أخبرتكَ أنّ جثّةً لم يُعثر عليها.

بسبب ذلك وبصرامة، فرضت عليّ أمّي واجب التقمّص. فحالما مَتِنَ عودي راحت تُلبسني ثياب المرحوم، وإن كانت فضفاضة عليّ، ثيابه التحتيّة وقمصانه وأحذيته، إلى أن بلِيَتْ كلّيًا. فرضت عليّ عدم الابتعاد عنها أو التنزّه وحدي أو النوم في أماكن مجهولة أو، عندما كنّا لا نزال في مدينة الجزائر، أن أُغامر على شاطئ البحر. هو البحر على الأخصّ. لقد علّمتني أمّي أن أخشى منه ومن أعذب ما يثيره من رغبات، لدرجة أنّ الإحساس بالرمل المنزلق تحت قدميّ، حيث تتلاشى الموجة، لا يزال حتّى اليوم يعني لي بداية الغرق. في الحقيقة أنّ أمّي لا تزال تعتقد، وستظلّ، أنّ الأمواج هي التي سحبت جثّة ابنها. أصبح جسدي إذن «أثر» الميت، وانتهى بي

الأمر إلى الانقياد إلى هذا التكليف الصامت. هذا بالتأكيد ما يفسّر جُبني الذي عوّضتُ عنه بذكاء متّقد إنّما دون أيّ طموح في حقيقة الأمر. كنت أظلّ مريضًا، وفي كلّ مرّة كانت تسهر على جسدي بعناية فائقة لامست الإثم، عناية موسومة بشيء لا أعرفه من الفعل الحرام، وتلومني على أيّ خدش أُصاب به كما لو أنّني جرحت بذلك موسى نفسه. وهذا ما حرمني الفرح البريء في عمري، وتوقّد الحواس والمُتع الجنسيّة السرّية في مراهقتي، حتى بتّ كتومًا وخجولًا، فتحاشيت الذهاب إلى الحمّامات العامّة والألعاب الجماعيّة، وفي الشتاء كنت أرتدي جلبابًا يقيني النظرات. إستغرق الأمر سنين كي أتصالح مع جسدي، مع ذاتي. أساسًا هل أنا اليوم متصالح مع هذه الذات؟ فلطالما انتابني هذا التوتّر في مظهري الناتج من شعوري بالذنب لأنّني حيّ. فذراعاي مرتخيتان دومًا ووجهي شاحب وهيأتي كئيبة حزينة. كأنّما إثباتًا لكوني ولد العسّاس، فإنّ نومي قليل وخفيف، ولا أزال حتّى اليوم أرتعب من فكرة إغماض عينيّ لأسقط لا أعرف أين من دون اسم أوّل يثبّتني كالمرساة. أورثتني أمّي مخاوفها وموسى جثّته. فماذا تريد من مراهق أن يفعل وقد أُطبق عليه الفخّ ما بين الأم والميْت؟

أذكر تلك الأيّام، النادرة، التي كانت فيها أمي تصطحبني في شوارع الجزائر سعيًا إلى معلومات عن أخي المفقود. كانت تحثّ الخطى وأنا أتبعها وعيناي تلاحقان حائكَها كيلا أضيع. بذلك تولّدت علاقة حميمة بهيجة أثمرت حنانًا عابرًا. كانت بمنطقها كأرملة وبأنّاتها المدروسة تجمع الأدلّة وتخلط المعلومات الصحيحة بشذرات من أحلام ليلتها السابقة. لا أزال أذكر أمّي متشبّثة بذراع أحد أصدقاء موسى، تعبر بشيء من الخشية أحياء الفرنسيّين لأنّنا دخلاء عليها، وتتلفّظ بأسماء شهود الجريمة وتستعرضها واحدًا واحدًا بألقابها الغريبة، «السبانيولي» والـ«باندي» وإلخ. كانت تلفظ «سالْ مانو» بدلًا من «سالامانو»، صاحب الكلب الذي ذكر بطلك أنّه كان جاره. كانت تطالب برأس «ريمون» الملقّب بـ«رايمن»، الذي اختفى أثره والذي أتساءل إن وُجد يومًا ما، هو الذي يفترض أنّه كان وراء موت أخي وهذه المسرحية المعقّدة من السلوك والمومسات والشرف. حتّى كأنّ الأمر انتهى بي إلى الشكّ في ساعة الجريمة وفي وجود الملح في عيني القاتل وأحيانًا حتّى في وجود أخي موسى.

نعم، كونّا ثنائيًا غريبًا ونحن نذرع شوارع العاصمة! بعد ذلك

بفترة طويلة، عندما خرجت من البلاد هذه القصّة التي صارت كتابًا مشهورًا وتركتنا فاقدي الشرف، وقد قدّمنا أنا وأمّي الأُضحية، حدث لي أن أستعيد، في ذاكرتي فقط، حيّ بلكور وأمثّل التحقيق نفسه، أفتّش عن الأدلّة متفحّصًا واجهات المباني والشبابيك. عند عودتنا مساءً، منهَكيْن وخائبَين، كان الجيران يرموننا بنظرات غريبة. أظنّ أنّنا استدررنا تعاطفًا ما في حيّنا. في أحد الأيّام انتهى الأمر بأمّي أن ركّبت مسار تحقيق جديد وواهٍ بعدما أُعطِيت عنوانًا. بدت مدينة الجزائر متاهة مرعبة عندما كنّا نغامر خارج دائرة إقامتنا، إلّا أنّ أمّي عرفت كيف تسلك فيها. حثّت الخطى مارّة بمقبرة وسوق مسقوف، متجاوزةً مقاهي وغابة من الأنظار والصياح، وزمامير السيّارات، أخيرًا توقّفت فجأة وراحت تُمعن النظر في منزل على الرصيف المقابل لنا. كان الطقس جميلًا في ذلك اليوم، تبعتها لاهثًا وهي تسير بسرعة فائقة. طوال الطريق سمعتها تتمتم شتائم وتهديدات، داعيةً الله وأسلافها، أو أسلاف الله نفسه، ومن يعلم من أيضًا. أحسستُ بانفعالها الشديد من دون أن أدرك لماذا بالتحديد. كان المنزل مؤلّفًا من طابق واحد وشبابيكه مغلقة، ولا شيء آخر يلفت الانتباه.

في الشارع كان الروميّون يرموننا بنظرات ارتياب. لبِثنا هناك صامتَين لحظات طويلة، ساعة وربّما ساعتين، قبل أن تجتاز أمّي الشارع غير عابئة بي، وتطرق الباب بعزم. جاءت عجوز فرنسيّة تفتح وقد بهرتها أشعّة الشمس فلم ترَ محدثّتها جيّدًا، لكنّها اتّقت الضوء بكفّها فوق عينيها وراحت تتفرّس فيها، ممعنة النظر وبدا لي انزعاجها وعدم فهمها، وأخيرًا أخذ الذعر يرتسم على وجهها. إحمرّ وجهها وجمّد الخوف عينيها وأوشكت أن تصيح. أدركت عندها أنّ أمّي تكيل لها من اللعنات أطول سلسلة أطلقتها حتّى الآن. بدأت المرأة تضطرب عند العتبة وحاولت أن تدفع أمّي. إنتابني الخوف على أمّي، وعلينا كِلينا. فجأة انهارت المرأة على سفرة الدرج فاقدة الوعي. راح الناس يتوقّفون، وهو ما تبيّنته من ظلّهم المنبسط من ورائي، وتجمهروا هنا وهناك صاخبين، وصرخ أحدهم «الشرطة!». صرخت امرأة بالعربيّة بأمّي أن تستعجل وتهرب سريعًا. عندها استدارت أمّي وصاحت كأنّما هي تتوجّه إلى كل روميّي العالم: «سيلتهمكم البحر، كلّكم!». ثمّ طوّقتني بيدها ورحنا نركض كالمسعورين. ما إن وصلنا منزلنا حتّى لاذت بالصمت، ونمنا من دون أن نأكل، فيما

بعد أوضحت للجارات أنّها عثرت على المنزل الذي نشأ فيه القاتل، وأنّها شتمت فيه جدّته ربّما، وأضافت: «أو إحدى أقاربه أو على الأقلّ روميّة مثله».

كان القاتل يقيم في مكانٍ ما من الحيّ غير بعيد من البحر، لكنّني اكتشفت بعد سنوات طويلة أنّه، بشكلٍ ما بلا عنوان. صحيح أنّنا اكتشفنا منزلًا بطابق واحد يعلو مقهًى وتظلّله بعض الأشجار، إلا أنّ شبابيكه كانت دومًا مقفلة في تلك الحقبة، وأعتقد بالتالي أنّ أمّي شتمت عجوزًا فرنسيّة مجهولة لا علاقة لها بمأساتنا. بعد الاستقلال بفترة طويلة، فتح مستأجر جديد شبابيكه على مصراعيها وبدّد كلّ غموض. ما هذا إلّا لأقول لك إنّنا لم نلتقِ القاتل قطّ، ولم ننظر في عينيه أو نفهم دوافعه. إستجوبت أمّي أناسًا وأناسًا حتّى بتُّ أخجل من الأمر، إذ بدا كأنّها تستجدي مالًا لا أدلّة. صارت هذه التحقيقات طقسًا أوجدته ضدّ الألم وأصبحت رحلتها ذهابًا وإيابًا من المدينة الفرنسيّة، على فظاظتها، فسحة للنزهات الطويلة. أذكر يومَ بلغنا أخيرًا البحر، هذا الشاهد الأخير المفروض استجوابه. كانت السماء مكفهرَّة ووجدت نفسي، على بعد أمتار منّي، أمام غريم عائلتنا الكبير، الهائل، سارق العرب

وقاتل المُغيرين عليه بثوب العمل. كان بكلّ بساطة الشاهد الأخير على لائحة أمّي. بوصولها إلى هناك ذكرت اسم سيدي عبد الرحمن، واسم الله عدّة مرّات، وأمرتني أن أبقى بعيدًا عن الأمواج، ثمّ جلست تدلّك كواحلها الموجوعة. وقفت وراءها، ولدًا في مواجهة عظمة الجريمة والأفق. سجّل عندك، أصرُّ على ذلك. ما الذي أحسستُ به؟ لا شيء سوى الريح على جلدي، وكنّا في الخريف، وقد مضى فصل على الجريمة. أحسستُ بالملح ورأيت كتلة الأمواج الرماديّة الكثيفة. هذا كلّ شيء. بدا البحر أشبه بجدار ذي جوانب رخوة ومتحرّكة. بعيدًا، في السماء، رأيتُ غيومًا كثيفة بيضاء. رحت ألملم ممّا كان مبعثرًا على الرمل، من صدف وكسر زجاج وسدّادات القناني والطحالب الداكنة. لم يبح لنا البحر بشيء بيد أنّ أمّي مكثت خائرة القوى على الشاطئ كأنّها منحنية فوق قبر. أخيرًا وقفت ونظرت بإمعان إلى اليمين ثمّ إلى اليسار وأطلقت بصوت أجشّ: «لعنك الله!». أمسكتني بيدي تجرّني بعيدًا من الرمل كما كانت تفعل دومًا. فانقدت لها.

عشت إذن طفولة شبح، تخلّلتها لحظات سعادة، لستُ أدري

أهيَ مهمّة وسط جوّ التعازي الطويل؟ أفترض أن ليس هذا ما يمنحك الصبر لتحمّل حديثي الفرديّ المغرور. أساسًا أنت الذي قصدتني وأتساءل كيف أوصلت الدنيا إلينا! أنت أتيت لأنّك تعتقد، مثلما اعتقدتُ أنا من قبل، أنّك ستتمكّن من العثور على موسى أو جثّته، وتحدّد مكان الجريمة لتعود وتعلن اكتشافك على الملأ في العالم أجمع. أنا أتفهّمك. أنت تريد العثور على جثّة فيما أنا أسعى إلى التخلّص منها. ليس من جثّة واحدة، صدّقني. إلا أنّ جسد موسى سيبقى لغزًا. فليس في الكتاب كلمة واحدة عنه. ألا ترى في ذلك تنكّرًا لتعسّفٍ قاهر؟ ما إن أُطلقتِ الرصاصة حتّى انكفأ القاتل وذهب إلى اللغز المحيّر، معتبرًا إيّاه أحقّ بالاهتمام من حياة «العربيّ». واصل سيره في طريقه بين حالات الإعجاب والشهادة. أمّا أخي زوج، فقد سُحب خفيةً من المشهد وأودع لا أعرف أين. لم يُرَ ولم يجرَ التعرّف عليه، قُتِل وحسب. لكأنّ الله بنفسه قد أخفى جسده! لم يُعثَر على أيّ أثر له لا في المحاضر الرسميّة في مراكز الشرطة، عند متابعة القضية، ولا في الكتاب ولا في المدافن. لا شيء البتّة. أحيانًا أسترسل في هذياني فأضيع أكثر. ربّما أنا، قابين، قاتل أخيه! مرّات

كثيرة تمنّيت أن أقتل موسى بعد موته، كي أتخلّص من جثّته، وكي أستعيد حنان أمّي المفقود، لكي أتصالح مع جسدي وحواسّي، ولكي... تبقى القصّة غريبة. فبطلك هو الذي قتل، وأنا أعيش الشعور بالذنب، أنا المحكوم عليّ بالتيه...
أحتفظ بذكرى أخيرة، ذكرى زيارات يوم الجمعة إلى الجانب الآخر، إلى قمّة باب الواد. أقصد مقبرة الكتّار، الملقّبة بـ«العطّار»، لوجود معمل قديم لتقطير الياسمين، جوار المكان. كلّ يوم جمعة من اثنين كنّا نذهب لزيارة قبر موسى الفارغ. فتروح أمي تتباكى وأنا أجد ذلك في غير مكانه، إذ لم يكن من جثمان في تلك الحفرة. أتذكّر النعناع الذي ينمو في المكان، والأشجار والممرّات المتعرّجة وحائكها الأبيض المبرز زرقة السماء. كان الجميع في الحيّ يعرف أنّ تلك الحفرة فارغة، وأن أمّي وحدها تملؤها بصلواتها وبسيرة حياة مغلوطة. في هذا المكان تفتّحت عيناي على الحياة، صدّقني. هناك أدركت أنّ جذوة وجودي في العالم من أبسط حقوقي، نعم هذا حقّي! برغم عبثيّة حياتي التي قامت على دفع جثّة إلى قمّة جبل قبل أن تتدحرج مجدّدًا، وذلك إلى ما لا نهاية. شَهِدَت هاتيك الأيّام، التي أمضيتها

في المقبرة، أولىصلواتي المتوسِّلة العالم. أنا أؤلّف منها اليوم صيَغًا فضلى، إذ اكتشفت فيها، بشكل غامض، شكلًا من أشكال الشهوانيّة. كيف أفسّر ذلك؟ فزاوية النور والسماء الشديدة الزرقة والهواء أيضًا أيقظتني كلّها على شيء أكثر إثارة من مجرّد الرضا المحسوس بعد تلبية حاجة ما. تذكَّرْ أنّ عمري كان أقلّ من عشر سنوات وفي هذا العمر كنت لا أزال متعلّقًا بكنف أمّي. كان لهذه المقبرة في نظري جاذبية ملعب رياضيّ. لم تكتشف أمي قطّ أنّني هناك دفنت موسى نهائيًا صارخًا في أعماقي بوجهه أن يدعني بسلام. في الكتّار تحديدًا مقبرة العرب، وهي اليوم قذرة يسكنها الفارّون والسكارى، وبحسب ما روي لي، تُسرق منها كل ليلة شواهد القبور الرخامية. هل تريد أن تزورها؟ لا جدوى من ذلك، فلن تجد فيها أحدًا ولا حتّى أثر هذا القبر الذي حُفر على غرار قبر النبي يوسف. فمن دون الجثّة لا يمكن إثبات أيّ شيء. فأمّي لم تحظَ بأيّ حقّ، لا باعتذارات قبل الاستقلال، ولا بتعويض بعده.

في الحقيقة تطلّب الأمر استعادة الرواية منذ البداية وعبر مسارٍ آخر، مسار الكتب، وتحديدًا كتابًا واحدًا، هو الذي

تحمله معك كلّ يوم إلى هذه الحانة. قرأته بعد عشرين سنة من صدوره، وقد استفزّني بكذبه الفائق وبتوافقه المدهش مع حياتي. قصّة غريبة أليس كذلك؟ مختصر الكلام أنّ فيه اعترافات، مكتوبة بصيغة ضمير المتكلّم، من دون تفاصيل أخرى يمكن أن يُدان به مورسو. فأمّه لم يكن لها وجود، ولا حتّى بالنسبة إليه. موسى عربيّ يمكن استبداله بآلاف الآخرين من بني جنسه، أو حتّى بغرابٍ أو بقصبة، أو لا أدري بأيّ كائن آخر. أمّا الشاطئ، فقد امّحى تحت آثار الأقدام أو تحت أبنية الإسمنت. ولم يكن غير الشمس شاهدًا. أمّا أصحاب الدعوى، فهم أمّيون غيَّروا المدينة؛ أخيرًا تحوّلت القضيّة مهزلة، وهذا من عيوب المستوطنين المتعطّلين من العمل. فكيف تعاملُ رجلًا تلتقيه على جزيرة مقفِرة ويقرّ لك بأنّه قتل، في الأمس، رجلاً اسمه «جمعة»؟ لا شيء.

شاهدت يومًا في فيلم سينمائيّ رجلًا يرتقي أدراجًا طويلة إلى مذبح حيث يفترض أن يُنحرَ إرضاءً لأحد الآلهة. كان يمشي مطأطئ الرأس، بطيئًا متثاقلًا كأنّه منهكٌ، شاحبًا مطيعًا من نوع خاصّ، كمن فقد حقّه على جسده. لقد صدمني استسلامه للقدر وسلبيّته المذهلة. على الأرجح رأى البعض

أنّه مهزوم، أمّا أنا، فعرفت أنّه بكلّ بساطة موجود في مكان آخر. عرفت ذلك من حمله جسده وِزرًا على ظهره. حسنًا، أنا كهذا الرجل، أحسستُ بإرهاق عتّال لا بخوف الأضحية.

=

هبط الليل. أنظر هناك، تلك المدينة العجيبة، أليست عالمًا موازيًا رائعًا؟ أعتقد أنّ المطلوب هو شيء لامتناهٍ، هائل من أجل تحقيق التوازن في حياتنا كبشر. أحبّ وهران في الليل بالرغم من انتشار الجرذان فيها وكلّ هذه المباني القذرة والموبوءة التي تُطلى باستمرار. صص في هذه الساعة يمكن القول، إنّ الناس بحاجة إلى شيء آخر غير حياتهم الرتيبة.

هل ستحضر غدًا؟

٧

يُعجبني فيك صبر الحجّاج المحنّكين، وأعتقد أنّني بدأت أحبّكَ! لمرّة يتسنّى لي أن أتكلّم عن هذه القصّة... قصّة أشبه بمومسٍ عجوز تبلّدت لشدّ ما تحلّق الرجال حولها. هي تشبه رقعة رقّ مخطوطة موزّعة في أنحاء العالم معصورة ومرقّعة حتّى ضاعت معالمها وقد اجتُرَّ نصّها إلى ما لانهاية، ومع ذلك أنت هنا جالس إلى جانبي، تبحث عن جديد غير مسبوق. إنّي لأقسم لك إنّ هذه القصّة لا تتلاءم مع سعيك إلى البراءة. لكي تهتدي في مسعاك كان عليك أن تفتّش عن امرأة، لا عن ميت.

هل نشرب من خمرة الأمس نفسها؟ أفضّلها هكذا حادّة منعشة. منذ أيّام حكى لي أحد مصنّعي الخمر عن مشاكله، يستحيل عليه إيجاد عمّال، إذ إنّ هذا العمل يُعدّ حرامًا.

مصارف البلاد ترفض بدورها، سائرة على النهج نفسه، منحه قروضًا! هاها! لطالما تساءلتُ: لماذا هذه العلاقة المعقَّدة مع الخمرة؟ لماذا يعطون هذه الصورة الشيطانيّة عن هذا المشروب في حين أنّه من المفترض أن تنساب أنهار من الخمر في الجنة؟ لماذا حُرِّم على الأرض، ووُعد به هناك؟ إنّها القيادة في حالة سُكر. ربّما لم يُرِدِ الله أن تشرب البشريّة فيما هي تقود الكون بالنيابة عنه وتمسك بمِقود السماوات... حسنًا، حسنًا، أقرّ معك بأن الحجّة واهيةٌ قليلًا، وأنا أنزِع إلى الهذيان، صرْتَ تعرفني.

أمّا أنت، فقد جئت إلى هنا كي تعثر على جثّة وتؤلّف كتابك، لكن أريدك أن تعلم أنّني إذا كنت أعرف القصّة، لا القليل عنها، إلّا أنّني أكاد لا أعرف شيئًا عن جغرافيّتها. فليست مدينة الجزائر سوى ذكرى ضبابيّة في رأسي. أنا لا أزورها أبدًا تقريبًا، بل أشاهدها على شاشة التلفاز أحيانًا، فتبدو كأنّها ممثلة عجوز من الفنّ الثوريّ عفا عليها الزمن. لا جغرافية إذن في هذه القصّة، كل شيء ينحصر في الأماكن الثلاثة الكبرى من هذا البلد، المدينة أو غيرها، والجبل حيث يلجأ الناس عندما يتعرَّضون لهجوم ويريدون خوض الحرب،

والقرية حيث جذور كلّ واحد. الكلّ يريد زوجة من القرية، ومومسًا في المدينة. يكفي أن أنظر من شبابيك هذه الحانة لكي أفرز لك أهل البلاد بحسب هذه العناوين الثلاثة. إذن عندما انتقل موسى إلى الجبل ليكلّم الله عن الأزل، غادَرْنا، أمّي وأنا، المدينة عائدَيْن إلى القرية. هذا كلّ شيء، ولا أكثر قبل أن أتعلَّم القراءة وتتحوّل فجأة قصاصة الجريدة تلك، التي تروي حكاية مقتل موسى/ زوج، والتي خبّأتها أمّي زمنًا طويلًا في صدرها، كتابًا ذا عنوان. فكّر في ذلك، هو من الكتب الأكثر قراءة في العالم، ولَكان أخي أصبح شهيرًا ربّما لو أنّ كاتبك تنازل وأطلق عليه اسمًا أوّلًا، حميد أو قدور أو حمو، فقط اسمًا أوّلًا، تبًا له! ولَكانت أمي قد حصلت على تعويض أرملة شهيد وأنا على أخٍ معروف ومعترَف به يمكنني المفاخرة به، لكن لا، هو لم يسمِّه لأنه لو فعل لكان أخي قد تسبّب للقاتل بأزمة ضمير، ليس من السهل قتل رجل إذا ما حمل اسمًا.

لنستعِد مسار الأحداث. ففي استعادة الأمور الأساس إفادة. فرنسيّ قتل عربيًا كان متمدِّدًا على شاطئ مقفِر. كانت الساعة الثانية بعد الظهر، في صيف عام ١٩٤٢. خمس

طلقات ناريّة أعقبتها محاكمة. حُكم على القاتل بالموت لأنّه لم يُحسِن دفن أمّه، ولأنّه تكلّم عنها بالكثير من اللّامبالاة. من الناحية التقنيّة عُزيَت الجريمة إلى الشمس أو إلى التبطّل وحسب. بطلب من قوّاد يدعى ريمون، كان حاقدًا على إحدى المومسات، دبَّج بطلك رسالة تهديد، وساءت الأمور ويبدو أنّها حُلّت بجريمة. قُتِل العربيّ لأنّ القاتل اعتقد أنّه يريد الانتقام للمومس، أو ربّما فقط لأنّه تجرّأ بكل وقاحة واستسلم للقيلولة. هذا يضعضعك، أليس كذلك، عندما ألخّص كتابك بهذا الشكل؟ لكنّها الحقيقة العارية. كلّ ما بقي زخرفات من صنع عبقريّة كاتبك، فيما بعد لم يعبأ أحد بالعربيّ ولا بعائلته ولا بشعبه. عندما خرج القاتل من السجن، ألّف كتابًا طارت شهرته، فيه يروي كيف قاوم الله والكاهن والعبثيّة. يمكنك أن تقلّب هذه الحكاية بكلّ الأشكال، لكنّها لا تصمد. إنّها قصّة جريمة، إلا أنّ العربيّ فيها لم يُقتل، ولنقل لم يكد يُقتل، أو من طرف الأصابع. العربيّ هو الشخصيّة الثانية، لكنّه لم يحمل اسمًا ولا وجهًا ولا كلامًا. هل فهمت شيئًا منها، أنت الجامعيّ؟ هذه القصّة عبثيّة! إنّها كذبة ظاهرة جلّية. إشرب كأسًا أخرى، على حسابي. إنّ ما

يرويه بطلك مورسو في هذا الكتاب، ليس عن العالم، لا بل عن نهاية العالم. ففيه لا نفع يُرجى من المُلكيّة، ولا يكاد الزواج يكون ضروريًا، والزفاف فاترًا، والذوق لا طعم فيه، والناس كأنّما هم جالسون أساسًا على حقائب، فارغة، لا تصمد تحتهم، متشبّثين بكلاب مريضة نتنة، وعاجزين عن صياغة أكثر من جملتين وعن النطق بأكثر من أربع كلمات تِباعًا. رجال آليّون! أوتوماتيكيّون، نعم هذه هي الكلمة، كادت تفوتني. أذكر تلك المرأة الصغيرة، فرنسيّة هي، التي وصفها الكاتب القاتل ببراعة، وكان قد شاهدها يومًا في صالة مطعم. حركاتها مقطَّعة تقطيعًا، عيناها لامعتان، في وجهها رعشات، وهاجسها الحساب، وحركاتها أوتوماتيكيّة. كما أذكر الساعة الكبيرة في وسط حجُّوط، وأظنّ أن رقّاصها وتلك الفرنسيّة توأمان. لقد تعطّل محرّكها بعد سنوات قليلة من الاستقلال. هذا ما بدا لي.

بالنسبة إليّ بات متعذّرًا عليّ أكثر فأكثر سَبر السِّر. وكما ترى أنا أيضًا أحمل على عاتقي أمًّا وجريمة. إنّه القدَر. أنا أيضًا اقترفت فعل القتل، تلبية لأماني هذه الأرض، في يومٍ لم يكن عندي فيه ما أفعله. آه! كم أقسمت إنّني لن أعود إلى ذكر

هذه الحكاية، لكن كلّ حركاتي إخراج لها أو استدعاؤها لا إراديًا. وقد انتظرت فتًى فضوليًا مثلك لأتمكّن من روايتها... في ذهني ترتسم خارطة العالم على شكل مثلَّث. في الزاوية العليا منه باب الواد، حيث المنزل الذي وُلِد فيه موسى. وفي الأسفل، على طول شرفة بحر مدينة الجزائر، هذا المكان اللاعنوان له، الذي لم يبصر القاتل النور فيه. وأخيرًا، إلى أدنى أيضًا، هناك الشاطئ. الشاطئ بالتأكيد! لم يعد له وجود اليوم أو ربّما هو رحل ببطء إلى مكان آخر. وبحسب الشهود كان بالإمكان من قبل مشاهدة التخشيبة الصغيرة عند طرفه. «كان البيت مسنودًا إلى الصخور والركائز القائم عليها مغروزة في الماء». وقد صدمتني عاديّة المكان عندما نزلت مع أمّي إليه في الخريف الأوّل بعد الجريمة. رويتُ لك، أليس كذلك، ذاك المشهد وأنا فيه مع أمّي عند طرف البحر، مجبرٌ على البقاء في الخلْف، وهي في مواجهة الأمواج تطلق في وجهها اللعنات. إنّه انطباع يعاودني كلّما اقتربت من البحر. في البداية يعتريني خوف، ويخفق قلبي، ثمّ سرعان ما أشعر بالخيبة، كما لو أنّ المكان بكلّ بساطة ضيّق جدًّا. كمن يريد أن يحشر الإلياذة بالقوّة على طرف رصيف، بين محلّ سمانة

وحانوت حلّاق. نعم إنّ مكان الجريمة كان، حقيقةً، مخيّبًا على نحو رهيب. وأنا أرى أنّ قصّة أخي موسى لا تسعها الأرض بكاملها! ومذّاك تتضخّم في ذهني أساسًا فرضيّة جنونيّة، وهي أنّ موسى لم يُقتَل على هذا الشاطئ الشهير في مدينة الجزائر! لا بدّ أن يكون هناك مكان آخر خفيّ، مسرح محجوب. وهو ما يوضح كلّ شيء فورًا! فلماذا أُخليَ سبيل القاتل بعد الحكم عليه بالإعدام ولماذا أخي، بعدما أُعدم، لم يُعثر عليه قطّ، ولماذا فضّلت المحاكمة إدانة رجل لأنّه لم يبكِ أمّه في وفاتها بدلًا من محاكمته لأنّه قتل عربيًا؟

خطر لي أحيانًا أن أذهب لأنقّب الشاطئ مفتّشًا في الساعة التي وقعت فيها الجريمة تمامًا، أي عندما تكون الشمس في أدنى نقطة لها من الأرض حتى يكاد المرء يُجنّ أو يفور دمه، لكنّ هذا لن يفيدني شيئًا. ثمّ إنّ البحر ينكّدني، فأنا في النهاية أخشى الأمواج. ولا أحبّ الغطس لأنّ الماء سرعان ما يلتهمني. «مالو خويا، مالو مجاش، البحر اداه عليّا راح وما ولّا ش». أحبّ هذه الأغنية المحلّية القديمة. رجل يغنّي فيها شقيقه الذي حملته البحار. أرى صورًا كثيرة تتوارد في رأسي وقد شربت بسرعة، على ما أعتقد. والحقيقة أنّني قمت بهذا

حقًّا. ستّ مرّات... نعم قصدت هذا الشاطئ مرّات، ولم أعثر قطّ لا على فراغات الطلقات ولا على آثار أقدام ولا على دماء جافّة على الصخور. لا شيء. وعلى مدى سنوات. إلى أن كان يوم الجمعة ذاك، قبل حوالى عشر سنوات، يوم رأيته فيها. تحت صخرة، على بعد أمتار من الموج، شاهدت طيفًا متَّحدًا بزاوية الظلّ القاتم. ما أذكره أنني كنت قد سرت طويلًا على الشاطئ وبي رغبة في أن تصرعني الشمس، أن أصُاب بضربة شمس أو بالإغماء لأعيش قليلًا ما يرويه كاتبك. وأعترف بأنّني كنت قد شربت الخمرة كثيرًا، والشمس محرقة مثل حكم سماويّ. أشعتها تتكسّر كالمسلات على الرمل وعلى اللجّة، لكن دون أن تُستنفد. وفي لحظة بدا لي أنّني أعرف مقصدي، لكنّني أخطأتُ على الأرجح. ثمّ شاهدت، عند طرف الشاطئ، عين ماء تنساب مياهها على الرمل وراء الصخرة. ورأيت «رجلًا»، ببرنس العمل، متمدّدًا بلا مبالاة. نظرت إليه بخوف وافتتان، أمّا هو، فلم يكد يراني. كان أحدنا، نحن الاثنين، شبحًا عنيدًا والظلّ أسود داكن، وفيه برودة العتبات. ثمّ... ثمّ بدا لي أنّ المشهد تحوّل هذيانًا ممتعًا. وعندما رفعت يدي رفع الظلّ

يدًا مثلي. وعندما تحرّكت خطوة جانبية مال الظلّ ليغيّر موطئ قدميه. عندها توقّفت وقلبي خافق بقوة، وانتبهت إلى أنّ فمي مفتوح كالأحمق، وأنّني لا أحمل سلاحًا ولا سكينًا. وتصبّبت عرقًا، أحرقت قطراته عينيّ. لم يكن هناك أحد في الجوار وبدا البحر ساكنًا. وعرفت بشكل موثوق به أنّ ذلك انعكاس، لكن لا أعرف لِمَنْ! أطلقتُ أنّةً فترنّح الظل. تراجعت خطوة، فتراجع معي في نوع غريب من الانكماش. ولقيتني مستلقيًا على ظهري، مرتجفًا من البرد، مصعوقًا بالخمرة الرديئة. سرت القهقرى حوالى عشرة أمتار قبل أن أقع باكيًا. نعم، أؤكّد لك أنني بكيت موسى بعد سنوات من وفاته. إنّ محاولة استعادة تفاصيل الجريمة في الأماكن التي ارتُكِبت فيها تفضي إلى مأزق، إلى شبح، إلى الجنون. وكلّ هذا لأقول لك إنّ الأمر لا يستحقّ عناء الذهاب إلى المقبرة ولا إلى باب الواد ولا إلى الشاطئ. لن تجد فيها كلّها شيئًا، لقد حاولت قبلك يا صاحبي. وأنا أبلغتك من البداية أن هذه القصة تجري في مكان ما من رأسٍ، في رأسي ورأسك ورؤوس الناس الذين يشبهونك. في عالمٍ آخر نوعًا ما.

لا تفتِّش عبر الجغرافيا، قلتها لك. ستتفهَّم أكثر روايتي

للوقائع إذا ما تقبّلت فكرة أنّ هذه القصّة تشبه حكاية البدايات، فقايين أتى إلى هنا لكي يبني المدن والطرقات، ويروّض الناس والتربة والجذور. و«زوج» كان ابن هذه الأرض عديم الأهمّية، متمدِّدًا تحت الشمس في وضعية الخامل التي تُنسب إليه، لا يملك شيئًا ولا حتى قطيع غنم قد يثير الطمع أو يدفع إلى الجريمة. فبطريقة ما قايين، رَجُلك، قتل أخي من أجل... لا شيء! ولا حتّى ليسرق ماشيته.

نتوقّف هنا، بات عندك مادّة كتاب جميل تؤلّفه، أليس كذلك؟ قصة شقيق «العربي»، قصّة «عربيّ» أخرى. أنت ابتلعت الطُعم...

=

آه، الشبح، قريني... إنّه وراءك مع كأس البيرة؟ لقد سجّلت مناوراته، هو يقترب منّا تدريجيًا، كأنّ شيئًا لم يكن. عقربٌ. يمارس الطقس نفسه دومًا. يبسط الجريدة ويقرأ في الساعة الأولى باهتمام، ثمّ يقصّ المقالات التي تتناول وقائع مختلفة، جرائم على ما أظنّ، لأنّني ألقيت نظرة سريعة على ما تركه مهملًا على الطاولة مرّة. ثم يروح يتأمّل عبر النافذة وهو يشرب كأسه. ثمّ تُطمَس معالم جسده ويصبح

هو نفسه شفّافًا حتّى يكاد يمّحي. ويبيت كالظلّ. يجري تجاهله، ولا يمكن تحاشيه عندما تكون الحانة مكتظّة. لم يسمعه أحد يتكلَّم. ويبدو أنّ النادل يعرف طلباته. إنّه يرتدي دومًا السترة العتيقة البالية نفسها عند المرفقَيْن، مع خصلة الشعر نفسها على جبينه العريض، وله دومًا هذه النظرة الباردة بصفائها. ولا ننسيَنّ سيجارته. السيجارة الأبديّة التي توصله بالسماوات بنفاثها الدقيق المتلوّي والمتطاول إلى الأعلى. وهو، طوال سنوات الجيرة هذه، لم يكد ينظر إليّ. هاها، أنا رجله «العربيّ» أو أنّه رجلي «العربيّ».

تصبح على خير، صديقي.

ملاحظة

البيتان المذكوران في هذا الفصل «مالو خويا، مالو مجاش، البحر اداه عليّا راح وما ولّاش» ويعنيان: «أين اخي، لماذا لم يرجع، أخذه البحر ولم يعد»، هما من أغنية للشاب خالد.

VI

كنت أحبّ أن أسرق الخبز الذي تخبّئه أمّي تحت خزانتها، وأراقبها بعدها كيف تنقّب البيت مفتّشة عنه متمتمة باللعنات. في إحدى الليالي، بعد مضيّ أشهر على مقتل موسى، وكنّا لا نزال مقيمين في العاصمة الجزائر، انتظرتُ إلى أن نامت وسحبت مفتاح صندوق مؤونتها وأكلت كلّ السكاكر التي أودعتها فيه تقريبًا. صبيحة اليوم التالي جنّ جنونها وراحت ترطن ثم أعملت أظافرها في وجهها باكية حظّها، من زوج غائب إلى ولد قتيل وآخر ينظر إليها بغبطة جارحة. إي نعم! أذكر ذلك، أحسست ببهجة غريبة وأنا أشاهدها تتألّم فعلًا، ولو لمرّة واحدة. فلكي ألفت انتباهها إلى وجودي كان لا بدّ لي أن أخيّب أملها. كأنّه أمر محتوم، أن تجمعنا هذه العلاقة بطريقة أوثق ممّا فعل الموت.

في أحد الأيام أرادت منّي أمّي أن أذهب إلى مسجد الحيّ وهو يُعتبر، إلى حدٍّ ما «حضانة» بإشراف إمام شابّ. حدث ذلك أيّام الصيف، وقد اضطرّت أمّي أن تجرَّني من شعري إلى الشارع، وكانت الشمس حارقة. تمكَّنْتُ من الإفلات منها وأنا أتخبَّط كالمسعور ثمّ شتمتها ورحت أركض ممسكًا بعنقود العنب الذي أعطتني إيّاه قبل قليل عندما حاولت أن تلاطفني. في هروبي تعثّرت ووقعت وسُحِقت حبّات العنب على التراب. بكيت بكلّ جوارحي وانتهى بي الأمر في المسجد مرتبكًا خجِلًا. لا أدري ما الذي أصابني، لكن عندما سألني الإمام عن سبب حزني اتّهمت ولدًا بضربي. أظنّ أنّها كانت هذه كذبتي الأولى. إنّها تجربتي الخاصّة عن الثمرة المسروقة في الجنّة. لأنّني منذ تلك اللحظة أصبحت ماكرًا ومخاتلًا، بدأت أكبر. إلّا أنّني لفّقت تلك الكذبة في أحد أيام الصيف. تمامًا مثل القاتل، بطلك، المتضجّر الوحيد المنكبّ على ما خلّفه من أثر، دائرًا على نفسه ومحاولًا أن يعطي معنًى للعالم وهو يمثّل بقدميه في جثَث العرب.

«عربيّ»، هل تعلم؟ لم أحسّ يومًا أنني عربيّ. إنها صفة تشبه وضع الزنوجة التي لا وجود لها إلا في نظر الرجل الأبيض.

نحن في الحيّ، في عالمنا، كنّا مسلمين، لنا أسماؤنا ووجوهنا وعاداتنا وكفى. هم الغرباء، الروميّون الذين أرسلهم الله لكي يمتحننا، لكن في أيّ حال كانت ساعاتهم معدودة، سيرحلون في يوم من الأيّام، بالتأكيد. لذلك لم نردّ عليهم، والتزمنا الصمت أثناء وجودهم وانتظرنا وظهورنا مسندة إلى الجدار. لقد أخطأ كاتبك القاتل، إذ لم يكن في نيّة أخي وصاحبه أن يقتلهما، هو وصديقه القوّاد. كانا ينتظران فقط. ينتظران أن يرحلوا جميعًا، القوّاد والآلاف الآخرين. الكلّ عرف ذلك، ومنذ نعومة أظفارنا، لا حاجة إلى الكلام في الموضوع، نعرف أنّهم سيغادرون في النهاية.

حين نمرّ بحيّ أوروبيّ كنّا نتسلّى بالإشارة إلى المنازل كي نتقاسمها فيما بيننا كغنيمة حرب. يهتف أحدنا: «هذا المنزل لي، أنا أوّل من لمسه!»، فتنطلق صيحات المزايدات. من عمر الخمس سنوات! أتدرك معنى ذلك؟ كأنّنا تكهّنّا بما سيحدث عند الاستقلال، إنّما من دون أسلحة.

كان لا بدّ إذن من نظرة بطلك كي يصبح أخي «العربيّ» ويموت بسبب ذلك. كان موسى قد أبلغ، في تلك الصبيحة المشؤومة من صيف عام ١٩٤٢، أنّه سيعود أبكر من العادة، كما قلت

لك غير مرّة. وهو ما أزعجني قليلًا، إذ كنت سأخسر ساعة من اللعب في الشارع. كان موسى يرتدي برنس العمل وحذاءه الرياضي. شرب القهوة بالحليب وتأمّل في الجدران كمن يتصفّح مفكّرة مواعيده اليوم، ثم نهض بسرعة بعد أن قرّر ربّما مساره النهائيّ وساعة اللقاء مع بعض من أصحابه. هذا ما كان يحدث يوميًا تقريبًا، الخروج صباحًا، ثمّ ساعات طويلة من التعطُّل إذا لم يتوافر العمل في المرفأ أو في السوق. صفق موسى الباب وراءه من دون أن يجيب عن سؤال أمّي: «هل ستأتي بالخبز اليوم؟».

ما ينخرُ في رأسي هو نقطة واحدة بنوع خاصّ: كيف صدف أن كان أخي على ذلك الشاطئ؟ هذا ما لم يُعرَف قطّ. ويبقى هذا التفصيل لغزًا بعيد الغور يصيب بالدوار عند التساؤل، بعدها كيف يمكن لرجل أن يضيّع اسمه الأوّل، ثمّ حياته وبعدها جثّته في نهارٍ واحد. في الحقيقة نعم، هذا ما جرى. أسمح لنفسي بأن أضخِّم الأمر لأقول إنّ هذه القصّة هي قصّة كلّ الناس في تلك الحقبة. الكلّ «موسى» في نظر أهله، في حيِّه، لكن يكفي أن يمشي بضعةَ أمتار في مدينة الفرنسيّين، تكفي نظرة واحدة من أحدهم ليضيِّع كلّ شيء، بدءًا من

الاسم الأوّل، طائفًا في الزاوية المعتِمة من المشهد. في الواقع فإنّ ما اقترفه موسى، ذلك اليوم، هو أن اقترب حدّ الاحتراق من الشمس. أراد أن يلتقي أحد أصدقائه، يدعى «لْعربي»، وهو كان، على ما أذكر، عازف ناي. أساسًا لم يُعثَر على لعربي هذا بتاتًا. إبتعد عن الحيّ كيلا يصادف أمّي، والشرطة، والمشاكل، حتّى قصّة هذ الكتاب. لم يبقَ من ذكره سوى اسمه الأوّل، كصدًى غريب: «لْعربي/ العربيّ». ليس ما هو مجهول الهوية مثل هذين الشبيهين المزيّفين...آه، بلى، تبقى المومس!

أنا لا أتحدّث عنها أبدًا، ففي ذلك إهانة فعلية. إنّها قصّة من تلفيق بطلك. هل كان مضطرًا إلى اختراع قصّة بعيدة الاحتمال إلى هذه الدرجة عن امرأة بغيّ يساكنها الرجال وقد أراد شقيقه الانتقام لها؟ أعترف لبطلك ببراعته في إبداع مأساة انطلاقًا من قصاصة جريدة، وفي إحياء روح إمبراطور معتوهة انطلاقًا من حريق؛ لكنّني أقرّ لك بأنّه في هذه النقطة خيَّب ظنّي. لماذا اختار مومسًا؟ ألكي يشوِّه ذكرى موسى ويلوّثها ويخفّف بذلك من فداحة غلطته؟ هذا ما أشكّ فيه اليوم. بتّ أظنّ بوجود رغبة من نفس معقّدة أدّت أدوارًا مجرّدة، وفيها أرض هذه البلاد من

منظور امرأتين خياليَّتين، ماري الشهيرة وحولها هالة من العفَّة العجيبة، وشقيقة موسى/ زوج المزعومة، الوجه السحيق لأراضينا يحرثها الزبائن والعابرون، وقد انتهى بها المطاف إلى عهدة قوّاد فاقد الأخلاق وفظّ. هي مومس أراد شقيقها العربيّ أن يثأر لشرفها. لو التقيتَني قبل عشرات السنوات لكنت قد أخبرتك رواية البغي/ الأرض الجزائريّة والمستوطِن الذي يعتدي عليها بالاغتصاب والقهر المتكرِّرين، لكنّني بتّ أرى من بعيد. فأخي زوج وأنا، لم يكن لنا أخت، وهذا كلّ ما في الأمر.

ويلحّ عليّ السؤال، أيضًا وأيضًا، لماذا وقف موسى في ذلك النهار على ذلك الشاطئ؟ لا أعرف. التبطّل عذر سهل والقدر صيغة مفخَّمة. ربّما يكون السؤال الأنسب بعد كل هذا هو التالي: «ماذا كان يفعل بطلك، أنتَ، على هذا الشاطئ؟»، ليس فقط في ذلك اليوم بل منذ زمن طويل جدًّا! منذ مئة سنة صراحة. لكن لا، صدّقني، أنا لست من هذا النوع، وقليلًا ما يهمّني إن كان هو فرنسيًا وأنا جزائريًا، إلّا أنّ موسى كان على الشاطئ قبله وبطلك هو الذي جاء مفتّشًا عنه. إقرأ المقطع في الكتاب مرّة أخرى. هو نفسه أقرّ بأنّه تاه قليلًا ليلتقي

العربيَّيْن بالصدفة. ما أقصده هو أنّه ما كان يُفترَض بالحياة التي يعيشها بطلك أن تقوده إلى هذه البطالة الفتّاكة. كان قد بدأ يحقّق شهرته، وهو ما زال شابًا وحرًا وموظّفًا وقادرًا على رؤية الأمور مباشرة. كان يفترض به أن يستقرّ في باريس أو أن يتزوّج من ماري. فلماذا حضر إلى هذا الشاطئ في ذلك اليوم تحديدًا؟ ما يتعذّر فهمه ليس فقط الجريمة، بل أيضًا حياة هذا الرجل. كان جثّة يصف، بشكل رائع، أضواء هذه البلاد، لكنّه علق في عالمٍ آخر لا آلهة فيه ولا جحيم. ليس إلا تلك الرتابة المُعمِية. وما قيمة حياته؟ لو لم يَقْتل ويكتب لما تذكّره أحد.

أريد كأسًا أخرى. نادِه.

هيه، موسى!

حتّى اليوم وكما كانت الحال دائمًا، عندما أعيد حساباتي وأسترجع مجرى الأحداث، أُفاجأ قليلًا. أوّلًا ليس الشاطئ موجودًا فعلًا، ثمّ إن شقيقة موسى المزعومة هي مجرّد اختلاق أو، بكلّ بساطة، ذريعة واهية أعطيت في اللحظة الأخيرة، وأخيرًا الشهود، تبيَّن أنّهم، واحدًا بواحد، أُعطوا أسماء مستعارة أو هم جيران مزيّفون أو ذكريات أو أناس

هربوا بعد الجريمة. لم يبقَ في اللائحة سوى ثنائيّيْن ويتيم. فهناك مورسو، رجلك، وأمّه من جهة، وأمّي مع موسى من الجهة الأخرى، وفي الوسط تمامًا أنا الذي لا أعرف ابن مَن مِن الفريقين، وها أنا جالس في هذه الحانة محاولًا استرعاء انتباهك.

لا يزال الكتاب يلقى نجاحًا لم يتغضّن، كما يبدو من حماستك، لكنّني أكرّر عليك أنّ في الأمر عمليّة احتيال مهولة. فبعد الاستقلال، وكلّما قرأت كتب بطلك، أحسست بانطباع أنّني أسحق وجهي على زجاج صالة أعياد لم نُدعَ إليها لا أمّي ولا أنا. جرى كلّ شيء من دوننا. ليس هناك أيّ أثر لحزننا ولا لما أصابنا فيما بعد. لا شيء إطلاقًا، يا صاحبي! يشاهد العالم إلى ما لا نهاية الجريمة نفسها تحت شمسٍ ساطعة، ولا أحد رأى شيئًا ولا أحد رآنا ونحن نبتعد. على كلّ حال! هناك ما يبرّر الغضب قليلًا، أليس كذلك؟ ليت بطلك اكتفى بأن يتباهى بذلك من دون أن يسعى إلى تأليف كتاب عن الجريمة! آلاف مثله عاشوا في تلك الحقبة، إلا أنّ موهبته هي التي جعلت الجريمة كاملة.

=

أنظر! الشبح غائب هذا المساء أيضًا، ليلتين متتاليتين. لا بدّ أنّه مشغول بإرشاد الأموات أو بقراءة كتب لا يفهمها أحد.

VII

لا ، شكرًا، أنا لا أحبّ القهوة بالحليب! أرتعب من هذه الخلطة.

أنا لا أحبّ يوم الجمعة خصوصًا. غالبًا ما أُمضي هذا اليوم من الأسبوع على شرفة شقّتي أنظر إلى الشارع والناس والمسجد. مسجد من الضخامة بحيث أنّني أحسّ أنه يحجب رؤية الله. أنا أسكن هناك في الطابق الثالث منذ عشرين عامًا على ما أظنّ، حيث كلّ شيء خراب. وعندما أنحني على حافّة شرفتي لأراقب الفتيان يلعبون، يتهيّأ لي أنّني أرى، بشكل مباشر، الأجيال الجديدة المتزايدة باطّراد، تدفع الأجيال القديمة إلى حافّة الهاوية. ويبدو الأمر شائنًا لكنّني أحسّ بشيء من الكراهية تجاههم، كأنهم يسلبونني شيئًا ما. لم أنَم جيّدًا الليلة الماضية.

لي جارٌ لا يُرى له وجه وقد وضع في رأسه أن يتلو القرآن في كل عطلة نهاية أسبوع، بأعلى صوته طوال الليل. ولا أحد يجرؤ على أن يطلب منه الامتناع عن ذلك على أساس، أنّه يزعق باسم الله. وأنا أيضًا لا أجرؤ فعندي من الهامشيّة ما يكفي في هذه المدينة. يخنّ بصوته نائحًا متذلّلًا، حتّى ليمكن القول إنه يلعب بالتناوب مرّة دور الجلاد ومرّة دور الضحية. هذا انطباعي دومًا عندما أسمع تجويد القرآن. أحسّ أن ليس في الأمر كتاب بل شجار بين سماء ما ومخلوق ما! فالدين في نظري هو وسيلة نقل عامّة أتجنّب ركوبها، لأنّني أحب أن أصل إلى هذا الإله، سيرًا إذا لزم الأمر، لا في رحلة منظّمة. أكره أيّام الجمعة منذ الاستقلال على ما أظنّ. وهل أنا مؤمن؟ لقد سوّيت مسألة السماء بمسلّمة بديهية، فمن بين كل الذين يثرثرون حول وضعي، جماعات الملائكة أو الآلهة أو الشياطين أو الكتب، أدركت منذ صباي أنّني أنا وحدي أعيش حزني وحتميّة الموت والعمل والمرض. أنا بنفسي أدفع فواتير الكهرباء لتأكلني الديدان في النهاية. هيّا إذًا! أنا في النتيجة أكره الأديان والخضوع. فهل من يفكّر في السعي وراء أب لم تطأ قدماه الأرض ولم يعانِ قطّ الجوع أو التعب

من أجل كسب العيش؟

وماذا عن والدي؟ صحيح، قلت لك كلّ ما أعرفه عنه. تعلَّمت كتابة هذا الاسم كما يُسجَّل عنوان ما، على الدفاتر المدرسيّة. اسم العائلة ولا شيء آخر. لم يبقَ أيّ أثر منه، ولا حتّى سترة عتيقة أو صورة فوتوغرافيّة. وعلى الدوام رفضت أمّي أن تصف لي قسماته ومزاجه، أن تمنحه جسدًا أو تروي ولو ذكرى بسيطة عنه. ولم يكن لي أعمام من العائلة أو من القبيلة فأتسلّى بإعادة رسم بعض مواصفاته. لا شيء البتة. عندما كنت ولدًا تخيّلته يشبه موسى قليلًا لكن بقامة أكبر. ضخم، عملاق فيه غضب الكون وجالس على تخوم العالم ممارسًا مهنته كحارس ليليّ. وأفترض أنّه هرب بسبب التعب أو الجبن. وعلى كلّ ربما كنت أشبهه. فقد تركتُ عائلتي قبل أن تصبح لي عائلة لأنّني لم أتزوّج قطّ، علمًا أنّني عشت بالتأكيد قصص حبّ مع كثير من النساء، لكن من دون أن يحرّرني ذلك من السرّ الثقيل والخانق الذي قيّدني بأمّي. وبعد كلّ سنوات العزوبيّة هذه توصّلت إلى الخلاصة التالية: كان من الثابت دومًا عندي سوء ظنّ كبير في النساء، فأنا في الأساس لم أصدِّقهنَّ أبدًا.

الأمّ والموت والحبّ، كلّ العالم موزّع، بشكل مجحف بين مراكز الجذب هذه. والحقيقة هي أنّ النساء لم يستطعْن تحريري لا من أمّي ولا من الغضب الدفين الذي أكنّه لها ولا حمايتي من نظرتها التي ظلّت لزمن طويل تلاحقني في كلّ مكان، بصمت. كأنما لتسألني لماذا لم أعثر على جثّة موسى أو لماذا بقيت بدلًا منه على قيد الحياة أو لماذا جئت إلى هذا العالم. ويجب أن نضيف إلى ذلك، الحشمة التي كانت سائدة في تلك الحقبة. نادرات كنّ النساء السهلات المنال، وفي قرية مثل حجُّوط كان من المتعذّر مصادفتهنّ حاسرات الوجوه، ولا حتّى مكالمتهنّ. ولم يكن لي نسيبات في الجوار. والقصّة الوحيدة في حياتي التي تشبه، إلى حدٍّ ما، قصّة حب هي تلك التي عشتها مع مريم. هي المرأة الوحيدة التي تحلَّت بالصبر لكي تحبّني وتعيدني إلى الحياة. تعرَّفت بها قبل فترة وجيزة من صيف عام ١٩٦٣ تحديدًا، يوم كان الناس جميعًا مأخوذين بحماسة ما بعد الاستقلال وأنا أذكر شعرها المنفوش وعينيها المتّقدتين اللتين لا أزال أراهما أحيانًا في أحلامي المتكرّرة. ومنذ قصتي هذه مع مِريم اكتشفتُ أنّ النساء يبتعدن عن طريقي، في شبه انعطافة، كأنّهن بغريزتهنّ

يشعرن بأنّني ابن لامرأة أخرى لا رفيق محتمَل. كما أنّ بنيتي الجسديّة لم تساعدني قطّ. ولا أحدّثك عن جسمي بل عمّا تفترضه المرأة عند الآخر أو تشتهيه. تكتشف المرأة بحدسها ما لم يكتمل بعد وتتحاشى الرجال الذين يطول أمد تردّدهم من زمن الفتوّة. كانت مِريم الوحيدة التي صمّمت على تحدّي أمي حتّى وإن لم تلتقِها قط ولا عرفتها حقيقة إلا عندما كانت تصطدم بصمتي وتردّدي. التقينا، هي وأنا، حوالى عشر مرّات في ذلك الصيف، وإنّما الباقي بواسطة المراسلة التي دامت بضعة أشهر ثمّ كفّت عن مراسلتي وتلاشى كل شيء. ربّما بسبب وفاة أو زواج أو تغيير عنوان. ومن يعلم؟ أعرف ساعي بريد عجوزًا من حيّنا انتهى به الأمر في السجن لأنه دأب على رمي الرسائل التي لم يوزّعها، في آخر النهار.

اليوم الجمعة. إنّه النهار الأكثر قربًا من الموت في روزنامتي. فيه يتنكّر الناس، ويرتدون أسخف الثياب المضحكة، ويتمشَّون في الشوارع وهم لا يزالون في ثياب النوم أو حتّى عند الظهر يجرجرون أقدامهم بالأخفاف كأنّهم في هذا اليوم مُعفَون من متطلّبات المدنية. فالإيمان عندنا يشجّع على حالات الاسترخاء الخاصّة، ويبيح الإهمال اللافت كلّ

يوم جمعة، كأنّ الرجال يتقرّبون من الله متغضّنين ومهمَلين كلّيّا. هل لاحظت كم تزايد انعدام الذوق في لبس الناس؟ لا عناية ولا أناقة ولا أيّ اهتمام لتجانس الألوان أو تفاصيلها. لا شيء. وبات من النادر أكثر فأكثر رؤية هؤلاء الكبار الذين يفضّلون مثلي العمامة الحمراء والصدرة وربطة العنق الفراشيّة أو الأحذية الجميلة اللامعة. يبدو أنّهم ينقرضون كما الحدائق العامّة. وساعة الصلاة هي أكثر ما أكرهه، منذ طفولتي، لكنّ كرهي ازداد لها منذ سنوات قليلة. من صوت الإمام يصيح عبر مكبّر الصوت إلى سجّادة الصلاة الملفوفة تحت الإبط إلى المآذن الصاخبة والمساجد بهندستها الفاقعة وتهافت المؤمنين الخبيث هذا نحو الماء والإيمان المزيّف والوضوء والتلاوات. يوم الجمعة تقع على هذا المشهد في كلّ مكان، يا صاحبي الآتي من باريس. هو تقريبًا المشهد نفسه يتكرّر منذ سنوات. يستيقظ الجيران، يجرجرون الخطى بحركات بطيئة، وتسبقهم بكثير زُمر أولادهم يتجمّعون مثل الديدان فوق جسدي، والسيارة الجديدة تُغسل مرّة تلو الأخرى، والشمس في مسراها اللانافع في هذا اليوم الدهريّ وهذا الإحساس المادّي تقريبًا بتعطّل كونٍ بأكمله انحصر بخصيتين

تُغسلان أو بآيات تُتلى. لديّ أحيانًا انطباع بأنّ هؤلاء الناس، عندما لا يستطيعون الذهاب إلى الأدغال، لا يجدون مكانًا يقصدونه على أرضهم. يوم الجمعة؟ ليس اليوم الذي استراح فيه الله، هو اليوم الذي قرّر فيه أن يهرب بلا عودة أبدًا. أعرف ذلك من صوت الفراغ الذي يستمرّ بعد صلاة الرجال، ومن وجوههم الملتصقة بزجاج التضرّعات. ومن لون الناس الذين يتجاوبون مع الخوف من المُحال بزيادة الحماسة. أمّا أنا، فلا أحبّ ما يُرفع نحو السماء، بل فقط ما تجمعه الجاذبيّة. وإنّني لأتجرّأ وأقول لك إنّي أرتعب من الديانات. كلّ الديانات! لأنّها تزيّف قَدْر العالم. أرغب أحيانًا في أن أشقّ الجدار الذي يفصلني عن جاري وأن أمسكه بعنقه وأصرخ فيه كي يتوقّف عن تلاواته البكائيّة، وأن يهتمّ بهذا العالم، ويفتح عينيه على قوّته الخاصة وكرامته ويتوقّف عن الجري وراء أب فرّ إلى السماوات ولن يعود أبدًا. أنظر قليلًا إلى هذه المجموعة المارّة هناك، والصبيّة ذات الحجاب على رأسها، فيما هي لا تعرف بعد ما هو الجسد وما هي الشهوة. ماذا يمكنك أن تفعل بأناس من هذا النوع؟ قل لي؟

ويوم الجمعة تغلق الحانات أبوابها ولا يكون عندي ما أفعله.

ينظر إليّ الناس مستغربين لأنّني في هذا العمر لا أصلي لأحد ولا أمدّ يدي مسلّمًا على أحد. فليس من المألوف أن يكون المرء قريبًا إلى هذه الدرجة من الموت من دون أن يشعر بقربه من الله. «اغفر لهم يا أبتاه لأنّهم لا يعلمون ماذا يفعلون». فأنا بكل جوارحي أتمسَّك بهذه الحياة التي أنا وحدي أفقدها، وأنا الشاهد الوحيد عليها. أمّا الموت، فقد أشرفت عليه قبل سنوات ولم يقرّبني قطّ من الله. هو فقط ولَّد فيّ الرغبة في أن أتمتّع بحواسّ أكثر قوّة وأكثر نهمًا وزاد لغزي الخاصّ تعقيدًا. هم يسيرون إلى الموت واحدًا تلو الآخر وأنا أعود منه ويمكنني القول إنّ لا شيء في الجانب الآخر سوى شاطئ مقفر، تحت أشعّة الشمس. وماذا يُفترض بي أن أفعل إن كنت على موعد مع الله والتقيت في طريقي رجلًا يحتاج إلى المساعدة لإصلاح سيّارته؟ لا أعرف. فأنا الرجل الطيِّب المتعطِّل لا العابر الذي يسعى وراء القداسة. وبالتأكيد أنا في هذه المدينة ألوذ بالصمت، وجيراني لا يحبّون فيّ هذه الاستقلاليّة التي يحسدونني عليها، ويريدون معاقبتي عليها. عندما أدنو منهم يصمت الأولاد، وعلى طريقي يتمتم آخرون بالشتائم فيما هم متهيّئون للهرب إذا ما التفتّ ورائي.

الجبناء! ولو كان ذلك قبل قرون من الزمن لربّما كنت أُحرقت حيًا بسبب ثوابتي وقناني الخمرة الحمراء التي يُعثَر عليها في براميل النفايات البلديّة. وهم اليوم يتحاشونني. أحسّ برأفة شبه إلهيّة تجاه هذه الجماعات وآمالها المشوَّشة. فكيف يمكن التصديق أنّ الله كلَّم رجلًا واحدًا ثمّ صمت هذا الرجل على نحو نهائيّ؟ أتصفّح أحيانًا كتابهم، الكتاب المقدس، فأقع فيه على حالات من اللَّغْو الغريب والتكرار والنواح، وتهديدات وأحلام تعطيني انطباعًا بأنّني أسمع مناجاة ذاتيّة من حارس ليليّ، من «عسّاس».

آه من أيّام الجمعة!

شبح الحانة ذاك الذي يدور حولنا على طريقته كأنّما ليسمع حكايتي بطريقة أفضل أو ليسرق قصّتي، أنا فعلًا أتساءل دومًا عمّا يفعله في أيّام الجمعة. هل يذهب إلى الشاطئ؟ أم إلى السينما؟ هل له أمّ هو أيضًا أو امرأة يحبّ معانقتها؟ لغز جميل أليس كذلك؟ هل لاحظت أنّ السماء، في أيّام الجمعة بشكل عامّ، تشبه أشرعة السفن المرتخية، وأنّ المخازن تقفل، وأنّه عند الظهر يعمّ الخلاء الأمكنة كلّها؟ في هذه اللحظة يعتصر قلبي شعور بخطأ خاصّ اقترفته. مرّات كثيرة عشت هذه الأيّام

الرهيبة في حجُّوط ودومًا مع هذا الشعور بأنّني عالق إلى الأبد في محطّة مهجورة.

منذ عشرات السنوات وأنا أراقب، من على شرفتي، هذا الشعب يتقاتل وينتفض وينتظر طويلًا ويتردّد بين مواعيد رحيله، ويهزّ رأسه استنكارًا ويخاطب نفسه ويفتّش جيوبه مذعورًا كمسافر تراوده الشكوك ويستطلع المواقيت في السماء ثمّ يسترسل في تبجيلات غريبة ليفتح له ثغرة في هذه السماء، يتمدّد فيها في انتظار لقاء ربّه بأسرع ما يمكن. مرّات ومرّات حتّى بتّ اليوم أعدّ هذا الشعب رجلًا واحدًا أتجنّب إطالة النقّاش معه، وأبقى على مسافة منه من باب الاحترام. تطلّ شرفتي على الساحة العامّة في المدينة حيث الزلّاقات المحطّمة وبعض الأشجار المشلّعة العطشى والأدراج القذرة وأكياس البلاستيك تتطاير في الهواء، وشرفات أخرى مبرقعة بالغسيل المنشور من كل الأشكال وخزّانات المياه والصحون اللاقطة. ويتحرّك جيراني أمام عينيّ مثل منمنمات مألوفة، وفيها عسكريّ متقاعد، ذو شاربين، يغسل سيّارته بمتعة لا حدود لها، استمنائيّة تقريبًا. وآخر ذو سمرة داكنة وعينين حزينتين، مهمّته الرصينة تأمين تأجير الكراسي والطاولات والصحون والقوارير، إلخ. في

مراسم الدفن كما في الأعراس. وهناك أيضًا إطفائيٌّ يمشي مِشية متكسّرة دأب على ضرب زوجته. وعند الفجر، على سفرة درج شقّتهما، ولأنّها تنجح في النهاية في رميه خارجًا، يروح يطلب منها الصفح هاتفًا باسم أمّه. ولا شيء أكثر من ذلك، ربّاه! في النهاية يبدو لي أنّك تعرف كلّ هذا حتّى وإن كنت تعيش في المنفى منذ سنوات كما تؤكّد.

أحدّثك عن ذلك لأنّه أحد جوانب عالمي. أمّا الشرفة الأخرى الخفية في رأسي، فإنّها تطلّ على مشهد الشاطئ المتوهّج، والأثر الضائع لجثّة موسى وعلى شمس جامدة فوق رأس رجل يحمل سيجارة أو مسدّسًا، لا أعرف بالضبط. وأشاهد من بعيد. الرجل ذو البشرة السمراء يرتدي سروالًا قصيرًا إنّما أطول من المعهود، نحيل القامة نوعًا ما، ويبدو مدفوعًا بقوّة عمياء شدّت عضلاته، حتّى لكأنّه رجل آليّ. وفي زاوية المكان هناك ركائز تخشيبة وفي الطرف الآخر منها صخرة تقفل على هذا العالم. هو مشهد ثابت أصطدم به مثل ذبابة بالزجاج. يستحيل الدخول إليه. لا يمكنني أن أضع قدميّ فيه لأركض على الرمال وأغيّر مجرى الأمور. وما الذي أشعر به عندما أرى هذا المشهد مرّة تلو الأخرى؟ الأمر نفسه الذي

رأيته عندما كنت ابن سبع سنوات. الغرابة والإثارة والرغبة في اختراق العازل أو اتباع الأوهام مهما تكن النتيجة. أشعر بالحزن لأنّني لا أميّز بوضوح وجه موسى. وبالغضب أيضًا. ودومًا بالرغبة في البكاء. إنّ المشاعر تشيخ على مهل، وعلى نحو أبطأ من الجلد. عندما يموت المرء وهو في المئة من عمره لا يحسّ ربما بشيء أكثر من الخوف الذي كان يعتريه، وهو في السادسة من العمر، عندما كانت أمّه تطفئ الضوء في المساء.

في هذا المشهد الذي لا يتحرّك فيه شيء، لا يشبه بطلك بشيء الرجل الآخر، الرجل الذي قتلته. فهو كان سمينًا ضاربًا في الشقار، مع هالتين واسعتين حول عينيه ويرتدي دومًا القميص ذات المربّعات نفسها. ومن هو الآخر؟ أنت تتساءل أليس كذلك؟ هناك دومًا آخر يا عزيزي. في الحبّ وفي الصداقة أو حتّى في القطار، هناك آخر يجلس قبالتك ويحدّق فيك، أو يدير لك ظهره ويحفر في آفاق عزلتك.

هناك إذن واحد من هؤلاء في قصّتي.

VIII

ضغطت على الزناد وأطلقت النار مرّتين، رصاصتين. واحدة في البطن والأخرى في العنق. والمضحك أنّه تبادر إلى ذهني فورًا أنّ المجموع بلغ سبع رصاصات. (بفارق أنّ الخمس الأوائل، تلك التي قتلت موسى، كانت قد أُطلقت قبل عشرين سنة...).

كانت أمّي تقف ورائي وأحسست كأنّ نظراتها يدٌ تدفعني، تُثبّتني في وقفتي وتوجّه ذراعي وتُحني رأسي قليلاً لحظة تصويبي نحو الهدف؛ وعلى وجه الرجل الذي أجهزتُ عليه لتوّي تجمّدت أمارات الدهشة ـ عينان كبيرتان جاحظتان وفم ملتوٍ على نحو غريب. نباحُ كلب في البعيد وارتجفت شجرة المنزل تحت سماء معتمة وحارّة. وقفتُ بلا حراك وكأنّ جسدي تشنّج. كان مقبض السلاح لزجًا بسبب تعرّق كفّي.

ومع أنّ الوقت كان ليلًا إلا أنّ الرؤية كانت واضحة جدًا تحت القمر المتألّق، القريب لدرجة أنّه بدا من الممكن التقاطه بمجرّد قفزة عالية نحو السماء. كانت تتصبّب من الرجل آخر قطرات العرق الناتج من ذعره. قلت في نفسي: «سوف يتصبّب عرقًا إلى أن يردّ كلّ مياه هذه الأرض، ومن بعدها سيختلط مع التراب ويصير وحلًا». ورحت أتخيّل موته مثل تفتّت العناصر، ومعها تتحلّل بطريقة ما فظاعة جريمتي. ولم تكن تلك جريمة قتل، بل «استعادة حق»، كما خطرت لي فكرة، حتّى وإن بدا من غير الطبيعيّ صدورها عن فتى بمثل عمري، وهي أنّه لم يكن مسلمًا وبالتالي ليس قتله محرّمًا. لكن أحسست على الفور أنّها فكرة تنمّ عن جبن. وأذكر نظرته. لم يكن فيها أيّ اتّهام لي، على ما أعتقد، لكنّه كان يحدّق فيّ كمن يتأمّل في ورطة لم يكن يتوقّعها. لبثت أمّي واقفة خلفي وأحسست بارتياحها عندما هدأ نَفَسُها وأصبح فجأة خافتًا تمامًا. لأنّه من قبل لم يكن إلا مثل الشخير. (سمعت صوتاً يقول لي: «منذ وفاة موسى»). كان القمر شاهدي الأوّل حتّى بدت السماء كلّها قمرًا. وكان أساسًا قد أضاء الأرض وسرعان ما خفّت الحرارة الرطبة. نبح الكلب

مجدّدًا، في الأفق المظلم، نبح طويلًا، وكاد يُخرِجني من حالة الخدر الذي اعتراني. بدا لي من السُّخف أن يموت رجل بهذه السهولة وأن يختم قصّتنا بهموده المسرحيّ الذي يكاد يكون مضحكاً. وراح صدغاي ينبضان مع قلبي المذعور الخافق بقوّة.

لم تأت أمّي بأيّة حركة، لكنّني عرفت أنّها انتزعت للتوّ من الكون انتباهه العظيم ونفضت يديها ماضية إلى عيش شيخوخة استحقّتها أخيرًا. هذا ما أدركته بالغريزة. وأحسست عضلاتي تتجمّد تحت إبطي الأيمن، تحت تلك اليد التي كسرت للتوّ توازن الأشياء. سمعتُ أحدًا يقول: «ربّما تعود الأمور أخيرًا إلى سابق عهدها». سمعتُ أصواتًا في رأسي. رّبما كان موسى هو المتكلّم. عندما تقتل، هناك جانب منك يبدأ على الفور بابتداع التفسيرات واختلاق الحجج وتأليف صيغة للأحداث تغسل يديك فيما لا تزال تفوح منهما رائحة البارود والعرق. أمّا أنا، فلم أكن لأعبأ بذلك لأنّني كنت أعلم، منذ سنوات، بأنّني عندما سأقتل لن أحتاج إلى إنقاذ أو محاكمة أو استجواب. خلال الحروب، لا أحد يقتل شخصًا بذاته. ليس في المسألة اغتيال بل معركة ومبارزة. والحال أنّه خارج

هذا المكان، بعيدًا من هذا الشاطىء وبعيدًا من منزلنا، كانت تجري حرب بالضبط، حرب التحرير التي كانت تحجب ما يشاع عن سائر الجرائم كلّها. كانت تلك أولى أيّام الاستقلال، وكان الفرنسيّون يهرولون في كلّ الاتجاهات، محاصَرين بين البحر والفشل، وترى أبناء شعبك مبتهجين، ينتفضون وهم بلباس العمل، ينتزعون أنفسهم من قيلولتهم تحت الصخور ويشرعون في القتل بدورهم. كانت تكفيني هذه الحجّة إذا ما احتاج الأمر، لكنّني كنت متيقّنًا في أعماق نفسي بأنّني لن أحتاجها. فأمّي ستتكفّل بالأمر. ثمّ إنّه مجرّد فرنسيّ يحاول الهرب من ضميره. وفي الحقيقة، شعرت بالارتياح، بأنّ حِملًا سقط عن ظهري وأصبحت حرًّا بجسدي الذي لم يعد منذورًا للقتل. بضربة واحدة، طلقة، أحسست إلى حدّ النشوة بالفضاء الشاسع وبإمكانيّة عيش حريّتي، بنداوة الأرض الحارّة والممتعة، بشجرة الليمون الحامض تنشر عطرها في الهواء الدافئ. ومرّ بخاطري أنّه أصبح بإمكاني أخيرًا أن أذهب إلى السينما أو أن أسبح مع امرأة.

فجأة هدأ الليل كلّه وتحوّل تأوّهًا، كما بعد الجماع، صدّقني. حتّى إنّني كدت أئنّ، أذكر ذلك تمامًا، بسبب شعور

العار الغريب الذي ظلّ يلازمني كلما استعدت تلك اللحظة.

بقينا على هذه الحال لفترة طويلة، كلّ منّا مشغول بالتمعّن في زمنه المتوقّف. الفرنسيّ الذي لسوء حظّه جاء يختبئ عندنا في تلك الليلة من صيف عام ١٩٦٢، وأنا بيدي التي لم تنزل بعد الجريمة، وأمّي وإصرارها على ثأر شنيع حقّقته أخيرًا. كلّ ذلك في الخفاء عن العالم، في خلال وقف إطلاق النار في تمّوز (يوليو) عام ١٩٦٢.

لا شيء في تلك الليلة الحارّة كان ينذر بحصول جريمة. تسألني ما الذي شعرت به تحديدًا بعدها؟ بخفّة كبيرة. بنوع من الاعتزاز، لكن من دون شرف. شيء ما استقرّ في داخلي وتكوَّم على نفسه واضعًا رأسه بين يديه وأخذ نفسًا عميقًا، وفي حالة انسحاق طفر الدمع في عيني. في تلك اللحظة، رفعت ناظريّ وتلفّتُّ حولي. ومرّة أخرى فوجئت باتّساع الساحة حيث أعدمت رجلًا مجهولًا قبل قليل، كما لو أنّ الأبعاد انزاحت وأصبحتُ أخيرًا قادرًا على التنفّس. ففيما عشت، حتّى تلك اللحظة، أسير الإطار الذي رسمه موت موسى ورقابة والدتي، وجدتني واقفًا وسط منطقة ممتدّة وسع الأرض الحالمة التي انفتحت أمامي تلك الليلة. وعندما

استكان قلبي، استكان معه كلّ شيء.

راحت أمي، من جهتها، تتمعّن في جثّة الفرنسي آخذة في ذهنها مقاييسها فيما هي تقدِّر حجم القبر الذي سنحفره له. وعندها قالت لي شيئاً بقي مبهمًا في دماغي. وعندما كرّرته استوعبت ما قالت: «أسرع!»، قالتها بنبرة صارمة وقاطعة كما تصدر الأوامر بعمل السخرة. لم يعد أمامنا دفن جثّة وحسب، بل ترتيب مسرح الجريمة وتنظيفه أيضًا، كما عند انتهاء الفصل الأخير من عرض مسرحيّ. (كنسُ رمل الشاطىء وطمر الجثة داخل ثَنية من الأرض متماهية مع الأفق، دفع صخرة «العربيّين» الشهيرة ودحرجتها وراء الهضبة، وتفكيك السلاح ليتلاشى كالزبد، والضغط على مفتاح الكهرباء كي تعود الأضواء إلى السماء ويستعيد البحر حركته اللّاهثة. وأخيرًا، العودة إلى الكوخ للانضمام إلى الشخصيّات الثابتة هي نفسها في هذه القصّة). آه! نعم، إليك تفصيلًا أخيرًا! كان عليّ الإمساك بساعة توقيت لكل ما عشته، ساعة بساعة، أن أُعيد ضبط عقاربها على أرقام إطارها اللعين لتتطابق تمامًا مع ساعة اغتيال موسى: الثانية من بعد الظهر - «زوج». حتى إنّني بدأت أسمع صوت صرير قطعها وهي تستعيد تكتكاتها

الواضحة والمنتظمة. وتصوّر لماذا، لأنّني قتلت الفرنسيّ عند الساعة الثانية صباحًا. منذ تلك اللحظة، بدأت أمي تشيخ بحكم الطبيعة لا بفعل الحقد، وغضّنتها التجاعيد وبدا أنّ أجدادها استكانوا أخيرًا وباتوا يقبلون مقاربتها عبر التملّقات الأولى التي تقود إلى النهاية.

وماذا عنّي؟ ماذا أخبرك؟ أخيرًا عادت إليّ الحياة وإن بتُّ مضطرّاً إلى جرّ جثّة جديدة ورائي. كنت أقول لنفسي إنّها على الأقلّ لم تعد جثّتي بل جثّة شخص مجهول. بقيت تلك الليلة سرّ عائلتنا الغريبة المؤلّفة من أموات ومنبوشين من القبور. دفنّا جثّة الروميّ في زاوية من الأرض قرب فناء المنزل. ومذّاك تعيش أمّي هاجس انبعاثه المحتمل. لقد حفرنا تحت ضوء القمر. ويبدو أن لا أحد سمع صوت الطلقتَين. في تلك الحقبة، كان القتل شائعًا كما سبق وأن أخبرتك، في أولى أيّام الاستقلال. في تلك الحقبة الاستثنائيّة، كان القتل ممكنًا دونما اكتراث. كانت الحرب قد توقّفت لكنّ الموت ظلّ يتلبَّس شكل الحوادث وقصص الثأر. ثمّ إنّ من اختفى أثره مجرّد فرنسيّ، لم يأتِ أحد على ذكره. أقلّه في البداية.

ها أنت قد اطّلعت على سرّ عائلتنا. أنت والشبح الماكر

الجالس وراءك. لاحظته وهو يدنو منّا تدريجيًا، حتى بات من ليلة إلى أخرى أقرب إلينا. وقد يكون سمع كلّ شيء، لكن ما همّني ذلك.

لا، أنا لم أكن فعلًا على معرفة بهذا الرجل الفرنسيّ الذي أرديته. كان بدينًا وأذكر قميصه ذات المربّعات وسترته العسكريّة ورائحته. رائحته التي كانت أوّل ما التقطته حواسّي منه عند خروجي تلك الليلة لمعرفة مصدر الصوت المخنوق الذي أيقظنا مذعورَيْن عند الساعة الثانية صباحًا، أمّي وأنا. صوت سقطة قويّة أعقبه صمت أكثر ثقلًا ورائحة رعب كريهة. كان أبيض اللون لدرجة أنّنا تبيّنّاه من حيث اختبأ في العتمة. أخبرتك أنّ الليل في ذلك المساء كان أشبه بستارة خفيفة وأنّه عمّت أعمال القتل في حينه، تنفّذها «منظّمة الجيش السرّي»، كما «الجنود» الملتحقون حديثًا بـ«جبهة التحرير الوطنيّة». كان زمن اضطرابات وأراضٍ بلا أصحاب ومغادرة المستوطنين على عجل وفيلّات مُحتلّة. وبتّ كلّ ليلة مستنفرًا، أحمي منزلنا الجديد من السطو، من لصوص السرقة. وكان مالكو المنزل، عائلة لاركيه، الذين عملت أمّي في خدمتهم، قد هربوا قبل ثلاثة أشهر تقريبًا. وبذلك

أصبحنا أسياد المكان الجُدُد، حقّ اكتسبناه بحكم الإشغال.

وجرى الأمر بمنتهى البساطة. في أحد الصباحات، سمعنًا من كوخنا الملاصق لمنزل أرباب عملنا، صراخًا وأصوات أثاث ينقَل وهدير محركات ثمّ مزيدًا من الصراخ. كان هذا في آذار(مارس) من عام ١٩٦٢. كنت قد بقيت في الجوار بسبب تعطّلي بعدما أصدرت أمي قبل أسابيع نوعًا من قانون استثنائيّ يفرض عليّ البقاء ضمن دائرة رقابتها. شاهدتها تدخل منزل مستخدميها حيث بقيت ساعة من الوقت خرجت بعدها باكية، لكنّه بكاء من شدة ابتهاجها. فأبلغتني أنهم راحلون جميعًا وقد كلّفونا السهر على البيت، الإشراف عليه بشكل ما في انتظار عودتهم... ولم يعودوا. غداة رحيلهم، انتقلنا مع الفجر إلى منزلهم. ولن تغيب عن بالي تلك اللحظات الأولى. في اليوم الأوّل، لم نكد نجرؤ على استعمال الغرف الرئيسيّة، فاكتفينا، في حالة من الرهبة، بالإقامة في المطبخ. قدّمت إليّ أمي فنجان قهوة في الفناء قرب شجرة الليمون الحامض حيث تناولنا الطعام صامتَيْن، مع الإحساس بأنّنا بلغنا وجهة ما منذ هروبنا من مدينة الجزائر. في الليلة الثانية، غامرنا بدخول إحدى الغرف وتلمّسنا الأواني بأصابع منفعلة.

وكان هناك جيران آخرون يترصّدون بحثًا عن أبواب يخلعونها ومنازل يحتلّونها. كان علينا اتّخاذ قرار وعرفت أمّي كيف تواجه الأمور. تلفَّظت باسم وليّ لا أعرفه ودعت امرأتين عربيّتين أخريين وأعدّت القهوة وجالت بمبخرة ناشرة دخانها في كلّ الغرف وأعطتني سترة وجدتها في إحدى الخزانات.

هكذا احتفلنا بالاستقلال: بيت وسترة وفنجان قهوة. في الأيام التاليّة، بقينا متيقّظين خوفًا من أن يعود أصحاب البيت، أو أن يأتي أناس لطردنا منه. لم ننَم إلا لمامًا، ولازمتنا حالة التأهّب. لا يمكن الوثوق بأيّ كان. كنّا نسمع أحياناً، في الليل، أصواتًا مخنوقة وخطًى متراكضة، ولهاثاتٍ وسائر الأصوات المريبة. كانت أبواب المنازل تُحطَّم، وحتى إنّني رأيت في إحدى الليالي، مقاوِمًا معروفًا في المنطقة يطلق النار على مصابيح الإنارة لينهب في تلك الأرجاء من دون عواقب.

وتعرّض بعض مَنْ بقي من الفرنسيّين للمضايقات بالرغم من الوعد الذي قُطع لهم بحمايتهم. وبعد ظهر أحد الأيّام تجمهروا في حجُّوط، لدى خروجهم من الكنيسة، بالقرب من مركز البلديّة الضخم في وسط الشارع الكبير، احتجاجًا على مقتل اثنين منهم على يد اثنين متحمّسين من «الجنود»

التحقا على الأرجح بالمقاومة قبل أيّام فقط، فأعدمهما قائدهما بعد محاكمة سريعة، لكنّ ذلك لم يحل دون استمرار أعمال العنف. في ذلك اليوم، كنت أبحث عن متجر مفتوح في وسط القرية، وهناك، وسط جمهرة فرنسّيين صغيرة اجتمعت في حالة من القلق، شاهدت ذاك الذي سيصبح ضحيّتي في الليلة نفسها أو في اليوم التالي أو بعد بضعة أيّام، لم أعد أعرف. كان يرتدي القميص نفسه الذي رأيته فيه يوم مقتله ولم يكن ينظر إلى أحد، وهو ضائع بين أهله الذين كانوا يراقبون بقلق طرف الشارع الرئيسيّ. والجميع في انتظار وصول مسؤولين جزائريّين والعدالة التي سيطبّقونها. تلاقت نظراتنا لبرهة، فخفض عينيه. كان يعرفني، وأنا أيضًا سبق أن لمحته في محيط عائلة لاركيه. فعلى الأرجح أنّه مقرَّب منهم أو هو من أنسبائهم وغالبًا ما كان يزورهم. بعد ظهر ذلك اليوم كان قرص الشمس كبيرًا وحارقًا، والحرّ الذي لا يُحتمل يشوّش ذهني. وكنت عادة أسرع الخطى وأنا أسير في حجُوط، لأنّ أحدًا لم يتفهّم لماذا، وأنا في هذا العمر، لم ألتحق بالمقاومة لتحرير البلاد وطرد كلّ أمثال مورسو. وبعدما توقّفت أمام مجموعة الروميّين الصغيرة، سلكت

طريق العودة تحت شمس خانقة بدا أنّ لها صريرًا متثاقلًا في السماوات، وكان ضوؤها باهرًا حتّى بدت وكأنّها تطارد فارًا بدلًا من أن تنوّر الأرض بهذه القساوة. اختلستُ نظرة ورائي ورأيت أنّ الفرنسيّ لم يتحرّك وهو يحدّق في حذائه، ثمّ نسيته. كنّا نقيم في طرف القرية، على مشارف أوّل الحقول، وكانت أمّي تنتظرني كما في كلّ مرة، بوقفتها الجامدة ووجهها المتجهّم كمن يستعدّ لتلقّي خبر سيّئ قد يأتي في أيّ وقت. وحلّ المساء وخلدنا في النهاية للنوم.

أيقظني هذا الصوت المخنوق. خطر لي للوهلة الأولى أنّه خنزير بريّ أو سارق. وفي العتمة، طرقت طرقة خفيفة على باب غرفة والدتي ثم فتحته: كانت جالسة على سريرها تحدّق فيّ مثل هرّة. أخرجْتُ السلاح على مهل من حيث كان مخبّأً بين المناديل الملفوفة. من أين وَصَلَنا؟ بالصدفة. كنت قد عثرت عليه قبل أسبوعين مخبّأً في سقيفة المستودع. مسدّس قديم ثقيل يشبه كلبًا حديديًا بمنخر واحد تصدر منه رائحة غريبة. أذكر ثقله تلك الليلة وهو يجذبني، ليس نحو الأرض بل نحو هدف غامض. وأذكر أنّني لم أشعر بالخوف مع أنّ المنزل عاد ليصبح فجأة غريبًا عليّ. كانت الساعة الثانية

صباحاً تقريبًا ووحده نباح الكلاب في البعيد يرسم الحدود بين الأرض والسماء المغلَقة. كان الصوت آتيًا من المستودع وكانت له تلك الرائحة. تتبّعته، وأمي من ورائي تشدّ أكثر من أيّ وقت مضى الحبل على عنقي. وعندما بلغت المستودع ورحت أجول بعينيّ مفتّشًا في الظلام، بدت فجأة من الشبح عيناه، ثمّ قميصٌ وملامح وجه مكشِّر. كان هناك محاصَراً بين حكاية شخصين وبضعة جدران، ومخرجه الوحيد هو أنا الحكاية، وقد قطعت في وجهه كلّ السبل. كان الرجل يتنفّس بصعوبة، وأنا أتذكّر بالتأكيد نظرته، عينيه. وهو في الحقيقة لم يكن ينظر إليّ. لقد جمّده السلاح الذي كان يُثقل قبضتي. وأعتقد أنّه ارتعب لدرجة أنه بات عاجزاً عن أن يسخط عليّ أو يلومني على موته. لو أنه تحرّك، لضربته و«بطحته أرضًا، مديرًا وجهه صوب العتمة وفقاقيع الدماء تنفقىء على الأرضيّة حول رأسه». لكنّه لم يتحرّك، ليس في البداية على الأقلّ. قلت لنفسي: «ما عليّ سوى العودة أدراجي فينتهي الأمر»، دون أن أصدّق نفسي لحظة واحدة. لأنّ أمي كانت هناك، تمنعني من أيّة محاولة تملُّص وتفرض عليّ ما لم يمكنها تحقيقه بنفسها: الثأر.

لم نتبادل أيّ كلمة، أنا وهي. كلانا هوى فجأة في ما يشبه نوبة جنون. لا شكّ أنّنا فكّرنا بموسى في الوقت نفسه. إنّها فرصة مؤاتية للانتهاء من قصّته ودفنه بكرامة. كما لو أنّ حياتنا، منذ موته، لم تكن سوى مسرحية هزليّة، أو وقف تنفيذ عقوبة جدّية، وأنّنا كنّا فقط نتظاهر بانتظار عودة ذلك الروميّ من تلقاء نفسه إلى مسرح الجريمة، هذا المكان الذي ننقله معنا أينما حَللْنا. اقتربتُ بضع خطوات وشعرت بجسدي ينتفض متمنّعًا. أردت قهر هذه المقاومة فخطوت خطوة إضافيّة. عندها تحرّك الفرنسيّ، أو ربّما لم يتحرّك حتّى، وارتدّ في العتمة إلى أبعد زاوية في المستودع. لم أرَ أمامي سوى ظلال «وارتسمت كلّ الأشياء والزوايا والانحناءات أمامي بضبابيّة مهينة للعقل». فهو إذ تراجع، ابتلع الظلام ما بقي من إنسانّيته، ولم أعد أرى سوى قميصه الذي ذكّرني بنظرته الفارغة صبيحة ذلك اليوم، أو عشيّة ذلك، لم أعد أعرف.
كانتا أشبه بطلقتين سريعتين أشبه بطرق على باب الخلاص. هذا على الأقلّ ما ظننت أنّه راودني. وماذا بعد؟ جررْتُ جثّته إلى الفناء الخارجي، ودفنّاه. ليس من السهل دفن ميت كما توهمنا الكتب أو الأفلام. فوزن جثّة الميت أثقل دائمًا بمرّتين

من وزن الإنسان الحيّ وترفض اليد التي تمتدّ إليها وتتشبّث حتى بآخر قطعة من الأرض التي تلتصق بها بكلّ ثقلها الخفيّ. كان الفرنسي ثقيل الوزن ولم يكن أمامنا متّسع من الوقت. ولم أكد أجرّه مسافة متر حتّى تمزق قميصه المحمرّ بدمائه. بقيت في يدي خرقة منه. تبادلت همستين أو ثلاث همسات مع أمّي التي بدت أساسًا غائبة، غير مكترثة كثيراً بالعالم الذي أورثتني إيّاه كديكور قديم. أخذت معولاً ورفشًا وحفرت عميقًا، تمامًا بالقرب من شجرة ليمون الحامض، الشاهد الوحيد على ما حدث. والغريب أنّني أحسست بالبرد مع أنّنا كنّا في عزّ الصيف، والليل دافئ وشهوانيّ كامرأة طال انتظارها للحبّ، وأردت أن أحفر أكثر وأكثر من دون أن أتوقّف أو أرفع رأسي. وفجأة تناولت أمّي الخرقة المرميّة على الأرض واشتمّتها مطوّلًا وبدا أنّ ذلك أعاد إليها أخيرًا غيرها. ووقفت تتأمّلني في حالة من الذهول تقريبًا.

وماذا بعد؟ لم يحدث أيّ شيء. وفيما بدأ الليل ـ بأشجاره الملامِسة النجوم لساعات، وقمره، وآخر شعاع شاحب من الشمس الغائبة، وباب منزلنا الصغير الذي يوقِف الوقت عنده، والظلام، الشاهد الأعمى الوحيد علينا، فيما بدأ

الليل يُزيل على مهل الالتباس ويعيد للأشياء معالمها، تمكّن جسدي أخيرًا من الاهتداء إلى توقيت الخاتمة. ارتعشت لذلك بمتعة شبه حيوانيّة، وفيما أنا متمدّد على أرض الفناء، أغمضت عينيّ مصطنعًا لنفسي ليلاً أكثر ادلهمامًا. وعندما فتحتهما مجدّدًا، رأيت، على ما أذكر، مزيدًا من النجوم في السماء، وأدركت أنّني وقعت في شَرَك في حلُم أكبر وحالة إنكار مهولة، لإنسان آخر طالما أغمض عينيه لا يريد أن يرى شيئًا، مثلي أنا.

IX

لا أروي لك هذه القصّة لكي أبرّئ نفسي متأخّرًا أو لأتخلّص من تأنيب الضمير. هذا أبعد ما يكون عنّي! ففي الحقبة التي قتلت فيها، لم يكن لله، في هذا البلد، وجود قويّ وضاغط بقدر ما هو عليه اليوم، وعلى كلّ حال أنا لا أخاف جهنّم. فقط أشعر بنوع من الإرهاق وبرغبة دائمة في النوم، وأحياناً بدوار هائل.

غداةَ الجريمة، بقي كلّ شيء على حاله. الصيف الحارّ نفسه وصرير الحشرات المُصمّ والشمس الحارقة تزرع أشعّتها مستقيمة في باطن الأرض. الأمر الوحيد الذي تغيّر بالنسبة إليّ، ربّما، كان ذلك الشعور الذي سبق أن وصفته لك: لحظة ارتكابي هذه الجريمة، شعرت كما لو أنّ بابًا قد أُغلق نهائيًا عليّ. واستنتجت أنّني بتّ مُدانًا، من دون أن أحتاج إلى

قاضٍ ولا إلى الديّان الأكبر ولا إلى مسخرة المحاكمة. أنا نفسي وحسب.

حلمتُ بمحاكمة! وأؤكّد لك أنّني كنت سأعيشها، بعكس بطلك، بحماسة من عرف الخلاص. أحلم بتلك القاعة المليئة بالناس، قاعة كبيرة وفيها أمّي وقد أصبحت بكماء في عجزها عن الدفاع عنّي لافتقارها إلى لغة بعينها، جالسة مخبولة على مقعد، لا تكاد تتعرّف على ثمرة أحشائها أو على جسدي. سيكون هنالك في آخر القاعة بعض الصحافيّين الذين لا شغل لهم، ولْعربي صديق شقيقي موسى، وعلى الأخصّ مِريم وكتبها بالآلاف متطايرة فوق رأسها كفراشات مرقّمة في فهرس فوضويّ. ومن ثمّ بطلك يؤدي دور المدّعي العام ويسألني في إجراء مستعاد فريد، عن اسم عائلتي واسمي ونسبي. وبين الحضور جوزيف، الرجل الذي قتلته، وجاري، مجوِّد القرآن المريع وقد أتى لمقابلتي في زنزانتي ليشرح لي بأنّ الله مسامح كريم. هو مشهد مثير للسخرية لأنّه يفتقر إلى أساس. فبِمَ يمكنهم اتّهامي، أنا الذي خدمت والدتي حتّى بعد مماتها، ودفنت نفسي حيًا أمام ناظريها لكي تعيش بالأمل؟ وماذا سيقال؟ إنّني لم أبكِ عندما قتلت جوزيف.

بأنّني ذهبت إلى السينما بعدما زرعت رصاصتين في جسده؟ لا ، لم يكن هنالك سينما لنا نحن في ذلك الزمن وكان القتلى كثرًا لدرجة أنّ الناس ما كانوا يبكونهم ، كانوا فقط يعطونهم رقمًا وشاهدين. عبثًا فتّشت عن محكمة وقاضٍ ، فأنا لم أعثر عليهما أبدًا.

في الحقيقة ، كانت حياتي مأساويّة أكثر من حياة بطلك. فأنا لعبت فيها على التوالي دورًا بعد آخر. تارةً دور موسى وطورًا الغريب ، أحيانًا القاضي وأحيانًا الرجل صاحب الكلب المريض ، ريمون المخادع ، وحتّى عازف الناي الوقح الذي كان يسخر من القاتل. هو في النهاية عَرض خلف أبواب مغلقة وأنا فيه البطل الوحيد. ممثّل منفرد في عرض باهر. تنتشر في أنحاء هذا البلد مقابر الغرباء وهدوء عشبها ليس إلّا ظاهريًا. وكلّ هذا الجمع الجميل يثرثر ويتدافع محاولًا القيامة من الموت عالقًا ما بين نهاية العالم وبداية محاكمة. وهنالك الكثير! الكثير الكثير! لا لست ثملًا ، إنّني أحلم بمحاكمة ، لكنّهم ماتوا جميعًا قبلي ، وأنا القاتل الأخير. قصة قايين وهابيل ، لكن في نهاية العالم ، لا في بداياته. الآن اتّضحت لك الأمور أكثر ، أليس كذلك؟ تلك ليست قصّة صفح أو ثأر

تافهة، إنّها لعنة، وفخّ.

ما أريده هو أن أتذكّر، أريد ذلك برغبة أكيدة وجامحة لدرجة أنّني قادر ربّما على إعادة عقارب الزمن إلى الوراء وصولًا إلى ذلك النهار من صيف عام ١٩٤٢، فأمنع جميع العرب في هذا البلد من النزول على الشاطىء لمدّة ساعتين. أو أن أحاكَم، أخيرًا، نعم، وأنا أتأمّل الحضور في قاعة المحكمة يختنقون تحت وطأة الحرّ. وأراني هاذيًا بين اللّامتناهي ولهاث جسدي المحشور في زنزانته، أقاوم بالعضل وبالفكر الجدران والحبس. أسخط على أمّي، أحقد عليها. ففي الحقيقة هي التي ارتكبت هذه الجريمة. هي التي أمسكت بيدي، فيما كان موسى يمسك بيدها وهكذا دواليك، وصولًا إلى هابيل أو أخيه. أتعتقد أنّني أفلسف الأمور؟ نعم، نعم. وهذا ما أدْرَكَه بطلُك جيّدًا، أدرك أنّ القتل هو السؤال الوحيد المناسب ومن الأجدر بالفيلسوف أن يطرحه على نفسه. وكلّ ما عدا ذلك ثرثرة، لكن ما أنا سوى رجل جالس في حانة. وها قد أشرف النهار على نهايته، وأطلّت النجوم واحدة تلو الأخرى وأضفى الظلام على السماء عمقًا مدوّخًا. أحبّ هذه النهاية الدوريّة، الليل يستدعي الأرض نحو السماء ويخلع عليها حصّة من

اللامتناهي تكاد توازي حصّته. قتلْتُ في الليل ومذّاك بات الليل بمداه متواطئًا معي.

آه! يبدو أنّك متفاجىء بلغتي، وكيف وأين تعلّمتها؟ في المدرسة. وحدي. مع مِريم. هي على نحو خاص من ساعدني على إتقان لغة بطلك، وهي من جعلني أكتشف وأقرأ تكرارًا هذا الكتاب الذي تحتفظ به في حقيبتك كتعويذة. هكذا أصبحت اللغة الفرنسيّة أداةً لإجراء تحقيق بالغ الدقّة والهَوَس. معًا، كنّا نجول بها ذَهابًا وإيابًا كمجهر على ساحة الجريمة. بلغتي ومن فم مِريم التهمت مئات الكتب! بدا لي أنّني كنت أقترب من تلك الأماكن التي عاش فيها القاتل، وأنّني كنت أمسك به من طرف سترته فيما هو يبحر صوب العدم وكنت أرغمه على الالتفات وراءه والتحديق بي للتعرّف عليّ، ليكلّمني ويجيب عن أسئلتي ويأخذني على محمل الجدّ فإذا هو يرتعد رعبًا لقيامتي من الموت، فيما هو أخبر العالم كلّه أنّني متّ على شاطىء في مدينة الجزائر!

لكن أعود للحديث عن الجريمة، لأنني أعتقد أنّني لن أحاكم مرّات أخرى غير هذه التي أُخضِع نفسي لها في هذه الحانة البائسة. أنت لا تزال شابًا، لكن يمكنك أداء دور القاضي

والمدّعي العامّ والحضور والصحافيّ... إذًا، عندما قتلت، لم تكن البراءة أكثر ما فاتني بعد ذلك، إنّما تلك الحدود التي كانت قائمة حتّى ذلك الوقت بين الحياة والجريمة. وهي خطّ فاصل من الصعب إعادة رسمه فيما بعد. و«الآخر» هو مقياس نفقده عندما نقتل. فغالبًا ما شعرت، منذ ذلك الحين، بدوار عجيب، يكاد أن يكون إلهيًا، لرغبتي، أقلّه في أحلام يقظتي، في إيجاد حلّ لكلّ شيء بواسطة القتل نوعًا ما. كانت لائحة ضحاياي طويلة: بدءًا بأحد جيراننا الذي نصّب نفسه «مجاهدًا سابقًا» فيما الجميع يعلم بأنّه لصّ ونذل في آنٍ، اختلس أموال مساهمات المجاهدين الحقيقيّين، ثمّ أَنتقِل إلى كلب مصاب بالأرق، أسمر، نحيل، نظراته مضطربة، يجرجر جسده في مدينتي. ثم ذلك الخال الذي ظلّ لسنوات يزورنا في العيد، بعد نهاية رمضان، ويعدنا بتسديد دين قديم لم يسدّده قطّ. وأخيرًا، أوّل رئيس بلديّة لحجُوط لأنّه نعتني بالعاجز لأنّني لم ألتحق بالمقاومة كالآخرين. أصبحت إذن هذه الفكرة مألوفة، بعدما قتلت جوزيف ورميته في بئر ـ كلمة تُقال طبعًا بما أنّني دفنته في حفرة. فما الحاجة إلى تحمّل عداوة خصم وظلمه أو حتّى كراهيّته طالما أنّه يمكن

حلّ كل ذلك ببضع طلقات ناريّة؟ يترسَّخ لدى القاتل الذي لم يُعاقَب ميل الى الكسل، إنّما شيء لا يمكن إصلاحه أيضًا، فالجريمة تفسد، الى الأبد، الحبّ وإمكانية الحبّ. فأنا قتلت، ومذّاك، لم تعد الحياة مقدّسة في نظري. ولذلك سرعان ما كان جسد كلّ امرأة ألتقيها يفقد شهوانيّته وقدرته على منحي وهْم المُطلق. كلّما اتّقدَت فيّ رغبة، كنت أعلم بأنّ الكائن الحيّ لا يرتكز على أيّ شيء متين. كنت قادرًا على إلغائه بسهولة كبيرة لدرجة أنّه لم يكن بإمكاني عبادته، فبذلك كنت سأخدع نفسي. لقد أخمدْتُ أجساد البشريّة كلّها بقتلي جسدًا واحدًا. وأساسًا، يا صديقي العزيز، الآية القرآنيّة الوحيدة التي يتردّد صداها في نفسي هي التالية: «من قتل نفسًا بغير نفس فكأنّما قتل الناس جميعًا».

إسمع، هذا الصباح قرأت مقالًا مشوِّقًا في جريدة قديمة عفا عليها الزمن. يروي المقال قصّة شخص يُدعى سدهو أمار بهاراتي. لا شكّ أنّك لم تسمع قطّ بهذا الرجل. إنّه هندي يؤكّد أنّه أبقى ذراعه اليمنى مرفوعة في الهواء طوال ثمان وثلاثين سنة. ونتيجة ذلك لم تعد ذراعه إلّا جلدًا على عظم. وبقيت متصلّبة حتّى موته. وفي الحقيقة هذا ما ينطبق علينا

جميعًا. بالنسبة إلى البعض، إنّها أيدٍ تعانق الفراغ الذي تركه جسم الحبيب، وبالنسبة إلى آخرين هي يد تمسك طفلاً أصابه الهرَم، أو رِجلٌ مرفوعة فوق عتبة لم يتمّ تجاوزها قطّ، أو أسنان مشدودة على كلمة لم تُلفظ، إلخ. أضحك لهذه الفكرة منذ الصباح. ولماذا لم يُخفِض هذا الهندي ذراعه قطّ؟ بحسب المقال، إنّه رجل ينتمي الى الطبقة الوسطى، وكان لديه عمل ومنزل وزوجة وثلاثة أولاد، يعيش حياة عاديّة وهانئة. وفي أحد الأيّام نزل عليه الوحي، كلّمه ربّه، وطلب منه أن يذرع البلاد متجوّلًا من دون هوادة مبقيًا ذراعه اليمنى مرفوعة على الدوام، داعيًا إلى السلام في العالم. وبعد ثمان وثلاثين سنة تيبَّست يده. أعجبتني هذه النادرة الغريبة، فهي تشبه ما أخبرك به: قصّة ذراع مرفوعة. فبعد أكثر من نصف قرن على الطلقات النارية التي أطلقتها على الشاطىء، لا تزال ذراعي في مكانها، مرفوعة، يستحيل خفضها، مجعّدة وقد براها الزمن ـ جلد جافّ على عظام ميتة، لكنّ الفرق هو أنّني أشعر بأنّ هذه الحالة أصابت كياني كلّه الذي من دون عضلات يبقى متشنِّجًا ومتألّمًا. ذلك أنّ البقاء على هذه الوضعيّة لا يفترض أن تحرم نفسك عضوًا واحدًا وحسب،

بل يعني أيضاً تحمّل عذابات رهيبة ومبرِّحة، مع أنّها زالت اليوم. إسمع ما يلي، ما قاله الهندي: «كان ذلك مؤلمًا، لكنّني تعوّدته الآن». وقد وصف الصحافي شهيد الألم هذا بأدقّ التفاصيل. فذراعه فقدت إحساسها كلّيًا، ونتيجة تثبيتها في وضعية شبه عموديّة، باتت ضامرة، وتشابكت أظافر يده فيما بينها. في البداية، ابتسمت لسماعي القصّة، لكنّني الآن أتأمّل فيها بجديّة. إنّها قصّة حقيقيّة لأنّني عشتها. رأيت جسد أمّي يتصلَّب في الوضعيّة المتشدّدة الثابتة نفسها. رأيتها تَتَقَدَّد مثل ذراع هذا الرجل المنقادة له في وضعيّة تعاكس الجاذبيّة. وأمّي أساسًا تمثال. أذكر أنّه عندما لم يكن عندها ما تفعله، كيف تلبث هناك، جالسة على الأرض، جامدة، كأنّها فقدت معنى وجودها. حقًّا، نعم! بعد سنوات، اكتشفتُ كم تحلَّت بالصبر وكيف تمكّنت من رفع «العربيّ»، أي أنا، إلى ذلك المشهد حيث تمكّن من الإمساك بمسدّس ومن قتل الروميّ جوزيف ودفنه.

هيّا لنغادر، أيها الشابّ. فعلى العموم، بعد الاعتراف، ينام المرء مرتاحًا أكثر.

X

غداة ارتكابي الجريمة غمرني سكون عميق. كنتُ قد غفوت في الفناء الخارجيّ بعدما أنهكني حفر القبر. أيقظتني رائحة القهوة. كانت أمّي تدندن مترنّمة! وأذكر ذلك جيّدًا، لأنّها للمرّة الأولى سمحت لنفسها بالغناء، وإن بصوت منخفض.

لا ينسى المرء أوّل يوم له في العالم. كأنّ شجرة الليمون ادّعت أنّها لم تكد ترى شيئًا. قرّرتُ عدم الخروج في ذلك النهار، وقد رأيت في اهتمام أمّي ولطفها ما يستقبل به «ابن ضالّ» أومسافر عائد بعد طول غياب أو قريب أعاده البحر متصبّبًا ماءً وعرقًا وعلى وجهه ابتسامة. عرفت أنّها تحتفل بعودة موسى، فأشحت برأسي عندما قدّمت إليّ فنجانًا، وأردت إبعاد يدها وهي تحاول مداعبة شعري. لكنّني أدركت، لحظة صدّي إياها، أنّني لن أحتمل أبدًا مجاورة جسد آخر. تُراني

أبالغ؟ أعلم أنّ القتل الحقيقيّ يولِّد ثوابت جديدة وحاسمة.
إقرأ ما كتبه بطلك عن إقامته في السجن، فأنا غالبًا ما أقرأ هذا المقطع، إنّه الأهمّ وسط لَغْوه عن الشمس والملح. ففي زنزانته طرح بطلك الأسئلة الكبرى الأهمّ.

لم أجد ما يعنيني في لون السماء، فأويت إلى غرفتي حيث غفوتُ بضع ساعات أخرى. حوالى الظهر أيقظتني يدٌ من نومي. هي أمي طبعًا، ومَن غيرها؟ قالت لي: «أتوا يأخذونك». لم تبدِ قلقًا ولا ذعرًا، إذ لا يعقل قتل ابنها مرتين، هذا ما فهمته جيّدًا. كانت بعض الطقوس الإضافيّة تنقص قصّة موسى قبل أن تنتهيَ فعلًا. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية من بعد الظهر ببضع دقائق، على ما أعتقد. خرجت إلى الباحة الصغيرة حيث رأيت فنجانين فارغين وبعض أعقاب السجائر وآثار أقدام على الأرض الطينيّة. أوضحت أمّي أنّ الطلقتين ليلاً نبّهتا «الجنود»، وقد دلّهم بعض أهل الحيّ على منزلنا، فأتوا للاستماع الى إفادتنا. جال الجنديّان بنظرهما بسرعة على الباحة، وقَبِلا قهوة أمّي واستجوباها عن حياتها وحياة عائلتها. وحزرتُ التتمّة. لا بدّ أنّ أمّي مثّلت دورها وحدّثتهما عن موسى بانفعال دفعهما إلى تقبيل جبينها مع

تأكيدهما لها بأنّ ثأر ابنها قد أُخذ كما يجب ومعه ثأرالملايين الآخرين الذين دأب الفرنسيّون على قتلهم كلّ صيف في تمام الساعة الثانية ظهرًا! لكنّهم قالا لها قبل مغادرتهما: «إختفى أحد الفرنسيين الليلة الماضية. بلّغي ابنك أن يحضر إلى مركز البلديّة، فالكولونيل يريد التحدث إليه، سوف نعيده إليك، بعد أن نطرح عليه بعض الأسئلة». هنا توقّفت أمّي عن مواصلة روايتها وتفرّست في وجهي كأنّها تسألني بعينيها الصغيرتين: «ماذا قرّرت أن تفعل؟»، ثمّ أردفت بصوت منخفض أنّها محت كلّ شيء، من آثارالدم وصولاً إلى سلاح الجريمة. وبالفعل فُرِش تحت شجرة الليمون الحامض بعض روث البقر... لم يبقَ أثر من تلك الليلة، لا عرق ولا غبار ولا صدى. لقد مُحي الفرنسيّ بالحرص نفسه الذي مُحِي به العربيّ على الشاطىء قبل عشرين عامًا. كان جوزيف فرنسيًا، وفي كلّ أرجاء البلاد كان يموت بعض الفرنسيّين، بقدر ما يموت من العرب أساسًا. حرب التحرير على مدى سبع سنوات حوّلت شاطىء صاحبك مورسو أرض معركة.

من جهتي، عرفت ما الذي أراده منّي أسياد الأرض الجُدُد. فحتّى لو ذهبتُ إلى هناك حاملاً جثّة الفرنسيّ على ظهري،

فلن تكون جريمتي الشيء الذي تراه العين، بل هو شيء آخر يدركه الحدس، إنّه غرابتي. ثمّ إنّي قرّرت عدم الذهاب في اليوم نفسه. لماذا؟ ليس من باب الشجاعة أو التحسُّبات، إنّما فقط بسبب الخدر الذي عراني. ما بعد الظهر، كانت السماء قد استعادت ألقًا عجيبًا، أذكر ذلك كمن يذكر حدثًا تاريخيًا. أحسستُ بنفسي خفيفًا وفي حال توازن مع كلّ ما يضغط على قلبي، مستكينًا ومستحقًّا لبعض الخمول. على مسافة واحدة من مقبرة موسى ومقبرة جوزيف، وأنتَ أدرى... دبّت نملة مسرعة فوق يدي. ذهلتُ أنّني على قيد الحياة بأدلّة واضحة، حرارتي مثلًا، على نقيض أدلّة الموت هنا على بعد مترين فقط منّي تحت شجرة الليمون الحامض. كانت أمّي تعرف لماذا قتلتْ والوحيدة التي عرفتْ ذلك! فلا أنا ولا موسى ولا جوزيف كنّا معنيّين بقناعتها. رفعت نظري نحوها وشاهدتها، كانت تكنس الفناء منحنية فوق الأرض تحادث موتاها أوجاراتها القديمات اللواتي بِتنَ مقيمات في رأسها. مرّت بي لحظة إشفاق، كلمحة بصر. تحوّل الخدر الذي اعترى ذراعيّ لذّة مؤلمة، وتابعت انزلاق الظلّ البطيء على جدار فنائنا. ثمّ غفوت من جديد.

نمتُ حوالى ثلاثة أيام متتالية، نومًا ثقيلًا، تتخلّلها لحظات صحوٍ لا أكاد أتذكّر فيها اسمي الأوّل. ألازم مضجعي مشلول الحركة، بلا أفكار ولا مشاريع، بجسدي الجديد المنخطف. تغاضت أمّي عن ذلك متواطئةَ معي بصبرها. كلما فكّرتُ في وضعي هذا، أستغرب نومي أيّامًا طويلة فيما البلاد في الخارج لا تزال منتشية ببهجة تحرّرها. كان الآلاف من أمثال مورسو وبينهم عربٌ أيضًا يفرّون في كلّ الاتجاهات. لم يعنِ لي ذلك شيئًا، ولم أكتشف سوى لاحقًا، بعد مرور أسابيع وأشهر، وعلى نحو تدريجيّ، حجم الخراب والجذل.

على فكرة، هل تعلم، أنا لم أكترث يومًا بتأليف كتاب، لكنّي أحلم بالمجازفة، بكتاب واحد وحسب! إيّاك من التوهّم! أنا لا أقصد تحقيقًا مضادًا حول قضيّة صاحبك مورسو، بل شيئًا آخر، أكثر حميميّة، بحثًا مهمًّا عن آلية الهضم، نوعًا من كتاب في فنّ الطبخ يمزج النكهة بما وراء الطبيعة، والملعقة باللاهوت والشعب بالمعدة والنيئ بالمطبوخ.

أخبرني أحدهم أخيرًا أنّ الكتب الأكثر مبيعًا في هذه البلاد هي كتب الطبخ. وأنا أعرف لماذا. ففيما كنّا، أمّي وأنا، نصحو من مأساتنا متهاديَيْن ومطمئنَّيْ الخاطر ربّما، كان الآخرون في

البلد يلتهمون الأرض وما بقي من السماء والمنازل والأعمدة والطيور والأجناس المسالمة. لديّ شعور بأنّ قومي لا يأكلون بأيديهم فقط، إنّما بكل جوارحهم أيضًا، بالعيون وبالأرجل وباللسان وبالجلد. وكلّ شيء صالح للأكل، الخبز والسكاكر على أنواعها واللحوم الآتية من بعيد والدواجن والأعشاب على أنواعها، لكن يبدو أنّ ذلك أعياهم وما عاد يكفيهم. لديّ شعور بأنّ هذا الشعب يحتاج إلى شيء أهمّ لإقامة التوازن مع الهاوية. هذا ما كانت أمّي تسمّيه «الأفعى اللامتناهية»، وأنا أعتقد بأنّ هذا سيقودنا إلى موت الكلّ قبل الأوان، أو السقوط في الفراغ من أعلى طرف في الأرض. أترى! أنظر جيّدًا إلى هذه المدينة وهؤلاء الناس من حولنا، وستفهم. كلّ شيء صالح للأكل منذ سنوات. الجصّ والحجارة المستديرة الملساء التي نجدها على شاطئ البحر، وبقايا الأعمدة. على مرّ السنوات، أصبح البهيم أقلّ حرصًا وراح يأكل حتّى ما يتوافر من بقايا الأرصفة. ويقتحم أحيانًا عتبة الصحراء ـ التي لم تنجُ إلّا بفضل وساعتها وفراغها على ما أظنّ. إنقرضت الحيوانات منذ سنوات لتصبح مجرّد صور في الكتب. واجردَّت الغابات في هذا البلد، لا شيء منها، كما اختفت بدورها أعشاش

اللّقالق الكبيرة، تلك الأعشاش المعلّقة على قمم المآذن وآخر الكنائس التي لم أكن أسأم من تأمّلها في مراهقتي. أرأيت أدراج المباني والمساكن المهجورة والجدران وأقبية النبيذ القديمة من أيّام المستوطنين، تلك العمارات المتهدّمة؟ إنّها وليمة. ها إنّني أشرد مجدّدًا في الكلام، أردت أن أحدّثك عن اليوم الأوّل في الحياة وإذا بي أحدّثك عن اليوم الأخير... ماذا كنّا نقول؟ إي، أجل، غداة الجريمة. لم أفعل شيئًا إذن، كما قلت لك، نمت فيما كان هذا الشعب يلتهم الأرض، أرضه غير مصدّق أنّه استردّها. كانت تلك أيّامًا بلا أسماء ولا لغة، وتراءت لي الكائنات والأشجار على نحو مختلف، من زاوية مفاجئة، تتخطّى تسمياتها المعتادة، وأنا أستعيد الإحساس البدائيّ. أدركت لوهلة، عبقريّةَ بطلك وهو يمزّق لغة الحياة اليوميّة العاديّة لتنبعث في الضفّة الأخرى من «المملكة»، حيث تترصّد لغة أكثر إثارة لترويَ العالم بطريقة مختلفة. هذا ما في الأمر! فإذا كان بطلك يروي بهذا الإتقان مقتل أخي، فذلك لأنّه بلغ فضاء لغة غير معروفة، آسرة أكثر ولا ترحم في نحت صخر الكلمات، جليّة كالهندسة الإقليديّة. أعتقد في النهاية أنّ هذا هو الأسلوب العظيم، أي أن تتكلّم بالدقّة المتزمّتة التي

تفرضها عليك اللحظات الأخيرة من حياتك. تخيّل إنسانًا يُحتضر والكلمات التي يتلفّظ بها. هنا تكمن عبقريّة بطلك: وصف العالم كما لو أنّه محتضِر في كلّ لحظة، كما لو كان عليه اختيار الكلمات مع الاقتصاد في أنفاسه. زاهد هو!

بعد خمسة أيّام، ذهبت إلى مبنى بلديّة حجُّوط تلبية لدعوة قادة هذا البلد الجدد. هناك أُوقِفت فورًا قبل أن أُرمى في حجرة مع عدّة أشخاص، بعضهم عرب (من الذين لم يخوضوا الثورة أو الذين لم تقتلهم الثورة على الأرجح)، مع غالبيّة من الفرنسيّين. لم أكن أعرف أيًا منهم، حتّى بالوجه. سألني أحدهم بالفرنسيّة عمّا اقترفته. أجبتُ أنّهم يتّهمونني بقتل فرنسيّ فلاذ الجميع بالصمت، وحلّ الظلام.

طوال الليل، نغّص البقّ نومي، لكنني اعتدتُ ذلك بعض الشيء. ثمّ أيقظني شعاع شمس تسلّل من الكوّة. وسمعت في الممرّات ضجيجًا ووقع خطًى وأوامر تُصرخ. لم يقدّموا إلينا القهوة. انتظرت. كان الفرنسيّون يحدّقون في العرب القليلين الموجودين، وهؤلاء يتفرّسون فيهم بدورهم. أخيرًا وصل جنديان ودلّا عليّ بإشارة من ذقنيهما فسحبني الحارس من عنقي إلى الخارج. أخذوني بسيارة جيب. نُقِلت

على ما بدا إلى مركز الشرطة، حيث عُزلت في زنزانة. كان العلم الجزائريّ يرفرف في الهواء. على الطريق، رأيتُ أمي ملتفّة بحائكها، وقد توقّفت عند مرور الموكب. إبتسمت لها ابتسامة خفيفة لكنّها بقيت جامدة كالرخام. لاحقتنا على الأرجح بعينيها قبل أن تستأنف سيرها. رموني في زنزانة، أُعطيتُ سطلًا للتبوّل وطشتًا من حديد. يقع السجن في وسط القرية، رأيت من خلال النافذة الصغيرة أشجار سرو طُلِيت جذوعها بالكلس. دخل حارسٌ يبلّغني أنّ بالباب من حضر لزيارتي. فخمّنت أنّها أمّي وصحّ ظنّي.

تبعت الحارس السَّكوت في رواق طويل جدًّا أفضى بنا إلى غرفة صغيرة حيث اثنان من الجنود لم يكترثا لنا. بَدَوا تعبين ومنهكين ومتشنّجين، تقدح عيناهما شررًا كمن يبحث عن هذا العدوّ الخفيّ الذي أمضيا سنوات في ترصّده وهم في صفوف المقاومة. إلتفتّ نحو والدتي، كان وجهها متجهِّمًا إنّما هادئًا، جالسة على مقعد خشبيّ بتماسك ووقار. للغرفة التي دخلناها بابان، الباب الذي دخلتُ منه، وباب آخر يفضي إلى رواق ثانٍ. هناك رأيت عجوزين فرنسيّتين. إحداهما متّشحة بالأسود مزمومة الشفتين، والأخرى بدينة ذات شعر كثيف،

بدت شديدة التوتّر، كما لاحظت في غرفة أخرى، هي مكتب على الأرجح، ملفّات مفتوحة وأوراقًا على الأرض وزجاجًا مكسورًا. كان كلّ شيء صامتًا، صمتًا ثقيلًا في الواقع، وهذا ما منعني من إيجاد الكلمات. لم أعرف ما عليّ أن أقول. فأنا، من زمان، قليلًا ما كنت أكلّم أمّي ولم نعتَد رؤية هذا الكمّ من الناس في وجهينا يترقّبون ما سنتفوّه به. الوحيد الذي اقترب منّا نحن الاثنين قتلتُه، وهنا لم يكن معي سلاح. فجأة مالت أمّي نحوي فتراجعت بسرعة كما لو أنّ أحدهم أراد ضربي على وجهي أو افتراسي دُفعة واحدة. كلّمتني بسرعة: «قلت له إنّك ابني الوحيد وإنّه لهذا السبب لم يكن بإمكانك الالتحاق بالمقاومة». وسكتت ثم أردفت: «أخبرتهم بأنّ موسى قُتل». ما زالت تتحدّث عن الأمر كما لو أنّه حصل البارحة أو أنّ التواريخ كانت مجرّد تفصيل. وأوضحت لي أنّها عرضت على الكولونيل قصاصتَي الصحف حيث رُويت قصّة مقتل عربيّ على أحد الشواطئ. تردّد الكولونيل في تصديقها إذ لم يرِد فيهما اسم وليس فيهما ما يبرهن أنّها فعلاً والدة الشهيد. وهل هو شهيدٌ أساسًا لمجرّد أنّ الحادثة وقعت عام ١٩٤٢؟ أجبتها: «من الصعب إثبات ذلك». لاحظتُ أنّ

الفرنسية البدينة تتابع حديثنا بكلّ تركيز، وأظنّ أنّ الجميع كانوا يسمعون حديثنا. لنعترف بأنّه لم يكن لهم مفرّ من ذلك. ففي الخارج تُسمع أصوات العصافير وأصوات المحرّكات وأشجار تحاول التماسك في وجه الريح، لكن لا أهمّيّة لكلّ ذلك. لم أعد أجد ما أضيفه. أفلتتْ منها همسة كمن يبوح بسرٍّ: «لم أبكِ كسائر النساء، وهذا ما جعله يصدّقني على ما أعتقد»، لكنّني فهمت ما أرادت قوله لي في الحقيقة. وانتهى حديثنا عند هذا الحدّ.

شعرتُ بأنّ الجميع يترقّب ختامًا مشرّفًا أو إشارة أو قرقعة إصبعين للتنبّه أو لإنهاء المقابلة دون أن أبدوَ مهانًا. أحسست بحمل ثقيل على ظهري. فمن المفترض بين أمّ وابنها السجين أن ينتهيَ اللقاء بعناق حنون أو بالدموع. ربّما كان يُفترض بأحدنا أن يقول شيئًا ما... ولم يحصل شيء من هذا، وبدا أنّ الوقت يتباطأ إلى ما لا نهاية. ثمّ سمعنا صريرَ عجلات. فخفَّت أمّي واقفة، وفي الرواق همّت المرأة المزمومة الشفتين بالتقدّم، واقترب منّي أحد الجنود ووضع يده على كتفي، فيما تنحنح الآخر. كانت الفرنسيّتان تحدّقان في طرف الممرّ الذي لم يكن بإمكاني أن أراه، سمعت فقط وقع الخطى على

الأرض. ولاحظت أنّ المرأتين، كلّما اقترب صوت الخطى، امتقعتا وانقبضتا وتوتّرتا وهما ترمقانني بنظرات مذعورة. وأشارت إليّ البدينة قائلة: «هذا هو، إنّه يتكلّم الفرنسيّة». همست لي أمي: «لقد صدّقني الكولونيل. عند خروجك سأزوّجك». لم أكن أتوقّع منها هذا الوعد، لكنّني فهمت ما كانت تقصده بذلك. من بعدها اقتادوني إلى زنزانتي. هناك جلست وتأمّلت أشجار السرو. وراحت تتضارب في رأسي شتّى الأفكار، لكنّني أحسست برباطة جأش وتذكّرت باب الودّ، وترحالنا أنا وأمي ووصولنا إلى هنا، إلى هذه البلدة، والضوء والسماء وأعشاش اللقلاق. في حجُّوط تعلّمت صيد العصافير، لكن مع مرور الأيّام لم يعد الأمر يمتِّعني. لماذا لم أحمل السلاح ولم ألتحق بالمقاومة؟ نعم، هذا ما كان عليّ فعله في تلك الفترة ونحن شباب ولم يكن بإمكاننا الذهاب للسباحة. كنت في السابعة والعشرين وفي القرية لم يفهم أحد لماذا بقيت أتسكّع في الأرجاء بدل أن ألتحق بالمقاومة مع «الإخوان». لطالما سخروا منّي، منذ وصولنا إلى حجُّوط. كانوا يعتقدون أنّني مريض أو بلا قضيب، أو أنّني سجين هذه المرأة التي كانت تقول إنّها أمّي. في سن الخامسة

عشرة، اضطررت إلى قتل كلب بيديّ مستعينًا بنصل صنعته من غطاء علبة سردين، كي يكفّ أترابي عن الاستهزاء بي، ووصفي بالجبان والمخنَّث. في أحد الأيّام، صرخ بي رجل كان يراقبني وأنا ألعب بالكرة في الشارع مع صبية آخرين: «رجلاك ليستا متساويتين!». ذهبت إلى المدرسة بإصرار من والدتي وتوصّلت بسرعة إلى أن أقرأ عليها قصاصات الجرائد التي كانت تجمّعها، والتي تروي كيف قُتل موسى، لكن دون الإتيان أبدًا على ذكر اسمه أوحيّه أو عمره، ولا حتّى الأحرف الأولى من اسمه. للحقيقة، لقد شرعنا في الحرب، بطريقة ما، قبل أن يدخلها الشعب. بالطبع أنا قتلت فرنسيًا في شهر تموز(يوليو) عام ١٩٦٢، لكّننا في العائلة عرفنا الموت والشهادة والنفي والفرار والجوع والحزن والمطالبة بالعدالة زمن كان زعماء الحرب لا يزالون يلعبون بالكلل، ويحملون السلال متجوّلين في أسواق مدينة الجزائر.

في سنّ السابعة والعشرين كنت خارجًا عن التصنيف العامّ نوعًا ما. كان عليّ تبرير ذلك عاجلاً أم آجلاً. وهذا ما حصل أمام ضابط من جيش التحرير. أدركتُ مرور الوقت متأمّلًا سماءً أراها من النافذة، ومن لون أشجار أصبحت داكنة ومهمهمة.

أتاني الحارس بطعام، شكرته وفكّرت في أنّني سأتمتّع مجدّداً بالنوم. كنت أشعر بحريّة فعليّة في زنزانتي، من دون أمّي ولا موسى. قبل أن يدعني الحارس وحدي، التفت صوبي وسألني: «لماذا لم تساعد الإخوان؟»، قالها لي بلا سوء نيّة، وحتّى بشيء من اللطف وبنوع من الحشريّة. لم أكن عميلاً للمستوطنين، وكان الجميع في القرية يعرف ذلك، لكنّني لم أكن مجاهدًا. ما أزعج الكثيرين، هو بقائي جالسًا هنا، في الوسط، ما بين منزلتين، كما لو كنت آخذ قيلولة على الشاطىء تحت صخرة أو أقبّل نهدَي امرأة شابّة جميلة، فيما كانت أمّي تتعرَّض للاغتصاب أو السرقة. «سيسألونك عن ذلك»، قالها لي قبل أن يغلق الباب. كنت أعلم عمّن يتكلم. نمت لاحقًا، لكن قبل ذلك، أصغيت. هذا كلّ ما أمكنني فعله، لم أكن مدخّنًا ولم يزعجني أن يسحبوا الشرائط من أحذيتي وأن ينتزعوا حزامي وكلّ ما كان في جيبي. لم أكن أريد قتل الوقت. أنا لا أحبّ هذا التعبير. أحبّ أن أراقبه، أن أتتبّعه بنظري، أن آخذ منه ما أستطيع. طالما أنّني لمرّة واحدة لا أحمل جثّة على كاهلي! قرّرت الاستمتاع بخمولي. هل فكّرتُ بما ستحمله الأيّام من الأسوأ؟ قليلاً على الأرجح،

لكن دون التوقّف عند هذا الأمر. كنت معتادًا الموت على نحو غريب. كنت قادرًا على الانتقال من الحياة إلى الموت، ومن الآخرة إلى الشمس بمجرّد تغيير اسمي، كأن أصبح هارون، أو موسى، أو مورسو، أو جوزيف. بحسب رغباتي، تقريبًا. الموت، في الأيّام الأولى للاستقلال، كان مجانيًا أيضًا، عبثيًا ومفاجئًا بقدر ما كان عليه، على ذلك الشاطىء المشمس، عام ١٩٤٢. يمكنهم اتّهامي بأيّ شيء، أو إعدامي بالرصاص لأكون مثلاً لغيري أو الإفراج عني بضربة على قفاي، كنت أعرف ذلك. حلّ المساء مع حَفنة من النجوم وعمّ الظلام زنزانتي مغشّيًا حدود الجدران، وحمل معه رائحة عشب نديّة. كنّا لا نزال في الصيف، وأمكنني في النهاية، وسط العتمة، رؤية طرف من القمر الذي انسلّ بطيئًا في اتّجاهي. نمت مجدّدًا، لفترة طويلة، فيما كانت بعض الأشجار البعيدة عن ناظريّ تمشي وهي تهزّ بقوّة أغصانها الضخمة، محاولة اجتثاث جذوعها السوداء والعطرة. كانت أذناي ملتصقتين بأرض كفاحها.

XI

استُجوبت عدّة مرّات استجوابات حول هويّتي، لم تدم طويلًا.

في مركز الشرطة، لم يبدُ أحدٌ مهتمًا بقضيتي. مع ذلك استقبلني أخيرًا ضابط من جيش التحرير. طرح عليّ وهو ينظر إليّ باستغراب بعض الأسئلة، عن اسمي وعنواني وتاريخ ومكان ولادتي. أجبت بتهذيب. سكت برهة، وبدا كأنّه يبحث عن شيء ما في أحد الدفاتر، وعاد يحدّق بي بقسوة هذه المرّة: «هل تعرف السيد لاركيه؟»، لم أشأ أن أكذب، لم أحتج إلى ذلك. عرفت أنّني لست هنا لاقترافي جريمة بل لأنّني لم أقترفها في الوقت المناسب. أختصر لك الكلام كي تفهم بشكل أفضل. أجبت مراوغًا: «كان البعض يعرفونه على ما أعتقد». كان الرجل شابًا لكن الحرب شيّبته، شاخ

بغير تناسق إذا جاز لي القول. فقد تجعّد وجهه المشدود بصرامة، وبدت لي من تحت قميصه عضلاته القويّة، وقد لوّحته الشمس بسمرة تلفح بها من يعيشون في الحُفَر والوعر. إبتسم وقد فهم أنّني أحاول التملُّص. «أنا لا أسألك عن الحقيقة. لا أحد يسعى إليها هنا. وإذا تبيّن أنّك قتلته فستدفع الثمن». وانفجر ضاحكًا. ضحكة قويّة، مجلجلة، غير واقعيّة. وأضاف وهو يقهقه: «من كان ليعتقد بأنّني سأحاكم جزائريًا لقتله فرنسيًا!» وكان محقًّا. أدركت جيّدًا أنني لم أكن هنا لأنني قتلت جوزيف لاركيه حتّى ولو حضر جوزيف لاركيه شخصيًا للتصريح بذلك هنا، برفقة شاهدين، حاملًا الرصاصتين اللتين أطلقتهما على جسده في راحة كفّه، وقميصه مطويّ تحت إبطه. كنت هنا لأنّني قتلته وحدي، لا لأسباب وجيهة. وسألني الضابط: «هل فهمت؟» فأجبته أنْ نعم.

أعادوني إلى زنزانتي ريثما يتناول الضابط الغداء. إنتظرتُ من دون أن أفعل شيئًا. كنت جالسًا ولم أكن أفكّر في شيء مهمّ، وإحدى ساقيّ كأنها منقوعة في بركة صغيرة من الشمس. انكشفت السماء كلّها عبر الكوّة. تناهت إليّ أصوات حفيف الأشجار وأحاديث بعيدة. تساءلت عمّا تفعله أمّي في هذا

الوقت. لا شكّ في أنّها تكنس الساحة وهي تتحدّث مع كلّ من يحيط بها. عند الساعة الثانية ظهرًا، فُتح الباب وسلكت مجدّدًا الطريق المؤدية إلى مكتب الكولونيل. كان ينتظرني جالسًا بهدوء تحت علم جزائريّ ضخم معلّق على الجدار، وعلى زاوية من مكتبه مسدّس. أُجلست على كرسيّ وبقيت بلا حراك. لم يقل الضابط شيئًا، تاركًا الصمت الثقيل يخيّم. أعتقد أنّه أراد التلاعب بأعصابي وإرباكي. إبتسمت لأنّ في هذا ما يشبه قليلًا تقنيّة أمّي عندما كانت تريد معاقبتي. إستهلّ كلامه قائلاً: «أنت في السابعة والعشرين». ثمّ انحنى صوبي بعينين متّقدتين، موجّهًا إليّ إصبع الاتّهام. وصرخ فيّ: «فلماذا لم تحمل السلاح لتحرير بلدك؟ أجب! لماذا؟»، وجدت ملامحه مضحكة بعض الشيء. ثمّ وقف وفتح درجًا بعنف وسحب منه علمًا جزائريًا صغيرًا راح يلوّح به في وجهي. وقال لي بصوت مهدّد فيه خنّة واتهام: «هل تعرفه هذا؟»، أجبته: «نعم، بالطبع». فاندفع في خطاب وطنيّ شدّد فيه على إيمانه ببلده المستقلّ وعلى تضحية مليون ونصف مليون شهيد. «كان يُفترض بك قتل الفرنسيّ معنا، خلال الحرب، لا هذا الأسبوع!»، أجبت بأنّ هذا لم يكن ليغيّر الأمور كثيرًا. فسكت

منزعجًا على الأرجح قبل أن يجحظني بنظرة مؤذية: «بل هذا يغيّر كلّ شيء!». سألته عمّا يغيّره. وراح يوضح لي متلعثمًا أنّ هناك فرقًا بين القتل والحرب، وأنّنا لسنا قتلة بل محرِّرين، وأن لا أحد أعطاني الأمر بقتل هذا الفرنسيّ وبأنّه كان يُفترض القيام بذلك من قبل. فسألته: «قبل ماذا؟». «قبل الخامس من تموز! نعم، قبل، ليس بعد، عليك اللعنة!». طُرق الباب طرقًا خفيفًا فدخل جنديّ ووضع مغلّفًا على المكتب. بدا أن هذه المقاطعة أغاظت الكولونيل. وألقى الجنديّ نظرة خاطفة نحوي قبل أن ينسحب. وسألني الضابط: «إذًا؟». أجبته أنّني لم أفهم، وسألته: «إن كنتُ قتلت السيد لاركيه في الخامس من تموز عند الساعة الثانية صباحًا، هل نعتبر أنّنا كنّا لا نزال في الحرب أم أنّنا دخلنا الاستقلال؟ قبل أم بعد؟». فوثب الضابط كالعفريت من فانوسه، ومدّ ذراعًا فاجأتني بطولها وصفعني صفعة هائلة. أحسست بخدّي يتجمّد، ثمّ كأنّه يحترق وغلبني الدمع. وكان لا بدّ أن أقوّم جلستي. ولم يحدث شيء بعدها. بقينا جالسيْن وجهًا لوجه، الكولونيل وذراعه التي استعادت مكانها ببطء عند جذعه، وأنا أتحسّس خدّي من الداخل، بلساني. شعرت أنّني أحمق. سمعنا صوتًا في الرواق،

فاستغلّ الضابط ذلك ليكسر الصمت: «هل صحيح أنّ شقيقك قُتل على يد فرنسيّ؟»، أجبته أَنْ نعم، لكنّ ذلك قبل اندلاع الثورة. فجأة بدا الضابط مرهقًا. همس قائلًا كمن يفكّر بصوت عال: «بكلّ بساطة كان يفترض بك القيام بذلك من قبل». وأضاف كمن يقنع نفسه بصحّة تحليله: «هنالك قواعد يجب احترامها». ثمّ طلب منّي إعادة تحديد نشاطي المهنيّ. قلت له: «موظّف في مصلحة تفتيش الأملاك». فهمس كمن يحدّث نفسه: «وظيفة مفيدة للأمّة». بعدها طلب منّي أن أروي له قصّة موسى، لكنّه بدا كأنه يفكّر في أمر آخر. قلت له ما أعرفه، أي القليل. إستمع الضابط إليّ شاردًا، واستنتج بأنّ روايتي ضعيفة الأساس، لا بل غير قابلة للتصديق. «شقيقك شهيد، أمّا أنت، فلا أدري...»، وجدت في عبارته هذه عمقًا مذهلًا.

أَتوه بالقهوة وصرفني. قبل أن أغادر الغرفة لفتني قائلًا: «نعرف كلّ شيء عنك، عنك وعن كلّ الآخرين. لا تنسَ!».

لم أعرف بِمَ أجيب فلزمتُ الصمت. عند عودتي إلى زنزانتي بدأت أشعر بالضجر. كنت أعلم أنّه سيفرج عني وهو ما أخمد الحماسة الغريبة المتّقِدة في داخلي. بدا لي كأنّ الجدران

تتدانى حولي وأنّ الكوّة تضيق، فجنَّ جنوني. ستكون ليلة سيّئة وباهتة وشديدة الحرّ. حاولت التفكير في أمور ممتعة كأعشاش اللقالق، لكن من دون نتيجة. سيطلقون سراحي من دون تفسير وأنا أردت أن أحاكَم. أردت تخليصي من هذا الظلّ الثقيل الذي يحوّل حياتي ظلمات. شعرتُ بالجَور حين أخليَ سبيلي هكذا من دون أن يوضّحوا لي ما إذا كنت مجرمًا أو قاتلًا، قتيلًا أو ضحيّة، أو بكلّ بساطة أحمق غير منضبط. أُهنتُ حين تعاملوا مع جريمتي بخفّة. لقد قتلت وقد أشعرني ذلك بدوار عجيب. لم يجد أحد في الأساس ما يقوله في الموضوع. وحده التوقيت، على ما بدا، طرح مشكلة مبهمة. يا للإهمال، يا للوقاحة! ألم ينتبهوا إلى أنّهم بذلك أسقطوا من قيمة فعلتي، أهدروها؟! إنّ مجّانيّة مقتل موسى لم تكن مقبولة. وها إنّهم يقابلون ثأري بالبطلان نفسه!

عند فجر اليوم التالي، في تلك الساعة التي يختارها العسكريون لأخذ قراراتهم، أُطلق سراحي بلا أيّ تبرير. من وراء ظهري، ظلّ بعض الجنود المرتابين يتهامسون، كأنّهم ما زالوا في الجرود مع أنّ البلد بات ملكًا لهم. هم شباب من الفلاّحين الوافدين من الجبال ذوو نظرات قاسية. أظنّ أنّ

الكولونيل قرّر تركي أعيش عار جبنيَ المفترض. لقد اعتقد أنّني سأعاني جرّاء ذلك. وكم كان مخطئًا. قه! قه! لا يزال الأمر يضحكني حتّى اليوم. لقد أخطأ كلّيًا...

أتعرف حقيقة لماذا اختارت أمّي جوزيف لاركيه كضحيّة؟ إذ يمكننا القول إنّها اختارته، نعم، حتّى وإن كان هو من أتى إلينا تلك الليلة. الأمر يكاد لا يُصدّق، أقسم لك. أخبرتني بذلك غداة الجريمة، وأنا لا أزال أهوِّمَ متوسّلًا النسيان بين قيلولتين. حسنًا، رأت أمّي أنّ هذا الروميّ يستحقّ العقاب، لأنّه كان مولعًا بالسباحة عند الثانية ظهرًا! فيعود من هناك مسمرًّا خليّ البال، سعيدًا وحرًّا. يفيض بالبهجة لدى عودته إلى حجُّوط ويزور آل لاركيه، فتجد أمّي، بالرغم من انهماكها في أعمالها المنزليّة، الأمر مذلًّا... عبّرت عن ذلك قائلة: «لست متعلّمة، لكنّني أفهم كل شيء. كنت أعرف ذلك!». كنت أعرف ذلك. ماذا تحديداً؟ الله وحده العليم، يا صديقي. أمر لا يصدّق، أليس كذلك؟! مات لأنّه كان يحبّ البحر وفي كلّ مرّة يعود فيها مفعمًا بالحيويّة، على حدّ قول أمّي. إنّها حقًّا مجنونة! أقسم لك، أنا لا أختلق هذه القصّة تحت تأثير النبيذ الذي نتقاسمه. إلاّ أنّي حلمت بهذا الاعتراف، خلال ساعات

نومي الطويلة مخبولًا بعد جريمتي. ربمّا في النهاية، لكن مع ذلك لا أصدّق أنّها اختلقت كلّ ذلك. كانت تعرف كلّ شيء عنه تقريبًا. عمره وشغفه بنهود الصبايا ومهنته في حجُّوط وعلاقاته بآل لاركيه الذين لم يقدّروه كثيرًا في النهاية. «كان آل لاركيه يقولون إنّه رجل أنانيّ وبلا أصل، ولا يراعي أحدًا. في أحد الأيّام، وفيما كانت سيّارتهم معطّلة وهم على الطريق ينتظرون المساعدة، مرَّ بهم، وهل تعلم ماذا فعل؟ تظاهر بعدم رؤيتهم وأكمل طريقه. كما لو أنّه كان على موعد مع اللـه. هذا ما قالته لي السيدة لاركيه!». لا أذكر كلّ ما أخبرتني به لكنّني أؤكّد لك أنّها كانت قادرة على تأليف كتاب كامل عن هذا الروميّ. «لم أضيّفه ولا مرّة أيّ شيء على الإطلاق. كان يكرهني». مسكين. وقع جوزيف في بئر عندما حطّ رحاله عندنا في تلك الليلة. يا لها من قصّة مجانين. كم من الميتات المجّانيّة! كيف يمكن بعد ذلك النظر إلى الحياة بجدّية؟ يبدو كلّ شيء مجانيًا في حياتي. حتّى أنت ودفاترك وملاحظاتك وكتبك.

هيا قُمْ وادعُه، أراك راغبًا في ذلك بقوّة، قل للشّبح أن ينضمّ إلينا، لم يعد لديّ ما أُخفيه.

XII

لا تفسير للحبّ بالنسبة إليّ. أنظر دومًا باستغراب إلى المتحابّين، إلى إيقاعهما البطيء أبدًا وإلى تلمّس طريق متعهما، إلى اشتراك في المأكل والمشرب يصيّرهما واحدًا، وإلى أسلوبهما في أخذ أحدهما الآخر باليد والنظر في آن واحد، ومن كلّ طرف تحقيقًا لاتّحاد تامّ بينهما. لا أفهم ما الحاجة إلى تلك اليد وهي تمسك بيدٍ أخرى، لا تريد إفلاتها، كي ترتسم ملامح الحبيب على قلب الحبيب. كيف يتصرَّف الناس المتحابّون؟ كيف يتحمّل واحدهما الآخر؟ ما الذي يجعلهما ينسيان أنّهما ولِدا، كلّ وحده، وسيموتان منفصلَيْن؟ قرأت كثيرًا من الكتب وعبرها تهيّأ لي أنّ الحبّ هو ترتيب لا لغز بالتأكيد. يبدو لي أنّ ما يعيشه أحدنا في الحبّ، أتحسّسه، أنا، في الموت، ذلك الإحساس الهشّ والمطلق

لكلّ حياة، بخفقان القلب والانسحاق أمام جسد أصمّ. ثبتَ لي أن الموت، عندما أصابني وعندما تسبّبت به، هو اللّغز الوحيد، وما بقي مجرّد طقوس وأعراف وتواطؤات مريبة.

في الحقيقة، الحبّ أشبه بوحش سماويّ يرعبني. أراه يلتهم الناس أزواجًا أزواجا، ويخلبهم بطُعم الأبدية. يحبسهم في نوع من شرنقة ثمّ ينفثهم إلى السماء ليعيد رمي حطامهم على الأرض كالقشور. أرأيت ما الذي يحلّ بالناس عندما ينفصل بعضهم عن بعض؟ خدوش على باب مقفل. أتريد كأسًا أخرى من النبيذ؟ هذه وهران! نحن هنا في بلد الكرمة، آخر منطقة يمكنك أن تجدها فيها، بعدما اقتلعوها في كلّ مكان آخر. لا يتقن النادل لغة وهران، لكنّه اعتادني. هو بحكم الطبيعة يكتفي بالغمغمة عندما يخدمك. سأناديه.

مِريم. نعم. عرفتُ مِريم في صيف عام ١٩٦٣. أؤكّد لك أنّه حلالي أن أكون معها، وأحببت من صميم قلبي وجهها المرتسم على قبّة الفلك. أعرف أنّه لو لم يقتلني موسى، إذ في الحقيقة موسى وأمّي وبطلك مجتمعين، هم قَتَلتي، لعشتُ، على نحو أفضل، منسجمًا مع لغتي وقطعة أرض صغيرة في مكان ما من هذا البلد، لكنّ هذا لم يكن قَدَري. أمّا

مِريم فكانت من جهتها تنبض بالحياة. هل يمكن أن تتخيّلنا قليلًا؟ أنا أمسك بيدها وموسى يمسك بيدي الأخرى، وأمّي على ظهري وبطلك يتسكّع على كلّ الشواطئ حيث يمكننا الاحتفال بزفافنا. عائلة بأكملها باتت ملتصقة بمِريم.

يا إلهي كم كانت جميلة بابتسامتها المشرقة وشعرها القصير! ما يحزّ في نفسي أنّني كنت ظلَّها وحسب لا وميضًا منها. أتعلم، إن موت موسى والحداد العميق الذي فرضه عليّ عطّلا عندي حسّ الملكية باكرًا. لا يملك الغريب شيئًا، وأنا الغريب. لم أحتفظ قطّ بشيء بين يديّ لوقت طويل، كنت أحسّ بالنفور وبثقل زائد. مِريم، اسم جميل أليس كذلك؟ لم أعرف كيف أحافظ عليها.

تأمّل جيّدًا هذه المدينة، تحسبها جحيمًا متداعية غير ذات فاعليّة. هي مبنيّة على شكل دوائر. في الوسط، النواة الصلبة، وفيها الواجهات الإسبانيّة، والجدران الصليبيّة، والمباني التي شيّدها المستوطنون والإدارات العامة والطرقات التي شُقّت بعد الاستقلال. وحولها خزّانات النفط ومساكنها الفوضويّة الهندسة. وأخيرًا، مدن الصفيح. ماذا وراء ذلك؟ أنا أتخيّل المطهر. لملايين الأشخاص الذين قضَوا في هذا

البلد، لأجل هذا البلد، بسبب هذا البلد وضدّه محاولين مغادرته أو العودة إليه. ترى أنّ في نظرتي ما ينمّ عن اضطراب عصبي، أوافقك الرأي... يبدو لي أحيانًا أنّ المولودين الجُدُد هم أموات أيّام زمان وقد عادوا كالأشباح للمطالبة بحقّهم.

هو يرفض أن يردّ عليك؟ حسنًا جِدِ التعبير المناسب، أنا لا أعرف. لا ترهبنَّك قصاصات جرائده وسمات الفيلسوف على جبينه. ألحّ. سبق أن عرفْتَ كيف تتقرَّب منّي، أليس كذلك؟

XIII

حسنًا، كان بودّي أن أسرد لك الوقائع بالتسلسل وهذا أفضل لكتابك المرتقب، إنّما لا بأس، ستتمكّن من إعادة ترتيبها. أُدخلت المدرسة في خمسينيّات القرن الماضي. أي في عمر متأخّر نسبيًا. لذا عندما جرى قبولي، بدوت أطول بشبر من زملائي. اللذّان أصرّا على أمّي لإدخالي المدرسة هما كاهن حجُّوط والسيّد لاركيه. لن أنسى أبدًا اليوم الأوّل، أتعرف لماذا؟ بسبب الحذاء. لم أكن أنتعل حذاءً. في أيّامي الأولى في المدرسة كنت أعتمر طربوشًا وسروالًا عربيًا... حافي القدمين، عربيّا الصفّ، أنا وزميلي حافيان. هذا لا يزال يضحكني حتّى اليوم. أمّا المعلّم فتصرّف كأنّه لم يلحظ شيئًا وهو ما جعلني ممتنًا له حتّى الآن. كان يتفحّص أظافرنا وأيدينا ودفاترنا وثيابنا ويتفادى التحدّث عن أرجلنا. أطلقوا

عليّ اسم زعيم هندي رُويَت قصّته في فيلم عُرِض في تلك الفترة، «سيتينغ بول» (الثور الجالس). لأنّني كنت أبقى معظم الوقت جالسًا أحلم ببلد يمكن السير فيه على اليدين. لكنّي كنت بارعًا. فتنتني اللغة الفرنسيّة كأحجية يكمن وراءها الحلّ لعالمي المتنافر. أردت ترجمته لأمّي، عالمي هذا، كيما أجعله على نحو ما أقلّ ظلمًا.

لم أتعلّم القراءة كي أُحسن التكلّم كالآخرين، إنّما للعثور على قاتل، من دون أن أقرّ بذلك لنفسي أوّلًا. في البداية، لم أكَد أكون قادرًا على تهجئة قصاصتي الجريدة اللتين ترويان مقتل «العربيّ» واللتين احتفظت بهما أمي مطويّتين بحرص شديد في عبّها. رحت كلمّا زاد تمكّني من قراءتي أحرّف مضمون المقال وأضخّم حكاية مقتل موسى. كانت أمّي تناولني إيّاهما من وقت لآخر: «هاك، إقرأ من جديد، أنظر إن كانوا يقولون شيئًا آخر لم تفهمه». دامت هذه القصّة حوالى عشر سنوات. أعرف ذلك لأنّني حفظت النصّين عن ظهر قلب. ورد فيهما ذكر موسى على شكل حرفين دقيقين، لينصرف بعدها الصحافيّ إلى التفطّر حزنًا، في بضعة أسطر، على القاتل وظروف الجريمة. تدرك إذن مدى العبقريّة اللازمة

لتحويل حادثة عابرة من مقطعين إلى مأساة تصف مشهد الشاطىء الشهير، حبّة حبّة. لطالما كرهت ما فيهما من إيجاز مهين، كيف أمكن إيلاء قتيل هذا القدر القليل من الأهميّة؟ ماذا أخبرك أيضًا؟ لقد تسلّى بطلك بقصاصة جريدة وجدها في زنزانته، أمّا أنا، فكانت القصاصتان من نصيبي كلّما أصابت أمّي نوبتها العصبيّة.

يا لها من دعابة! أتفهم الآن؟ أتفهم لماذا ضحكت عندما قرأت كتاب بطلك للمرّة الأولى؟ ففيما توقّعت أن أجد في هذه القصّة كلمات أخي الأخيرة ووصفًا لأنفاسه وردوده في مواجهة القاتل وبقاياه وملامح وجهه، قرأتُ مجرّد سطرين عن عربيّ غُفْل. كلمة «عربيّ» مذكورة فيها خمسًا وعشرين مرّة وما من ذكر لاسم واحد، ولامرّة واحدة. عندما رأتني أمّي للمرّة الأولى أخطّ أولى حروف الأبجديّة على دفتري المدرسي الجديد، ناولتني قصاصتي الجريدة وأمرتني بقراءتهما. فلم أقدر، لم أعرف. فلامتني قائلة: «هذا أخوك!»، كما لو أنّه كان عليّ التعرّف على جثّة في مشرحة. لزمت الصمت. ما الذي يمكنني أن أضيفه؟ أدركت فورًا ما الذيَ كانت تتوقّعه مني. أن أُحِيي موسى بعد موته، أن أعيش عنه. إختصار جيّد

أليس كذلك؟ عبر مقطعين، كان يُفترض إيجاد جسد ودوافع واتّهامات. كانت تلك طريقة لاستئناف تحقيق أمّي بحثًا عن زوج، توأمي. أفضى ذلك إلى كتاب غريب من نوعه، ربّما كان عليّ تأليفه أساسًا، لو أنّني تمتّعت بموهبة بطلك: معارضة كتابه. دسست كلّ ما أمكنني بين أسطر جزازات الصحف هذه، وضخّمت حجمها الى أن جعلتها عالمًا بذاته. حصلت أمّي على إعادة تركيب خياليّة للجريمة بأكملها، من لون السماء إلى الظروف والحوار بين الضحيّة والقاتل وجوّ المحكمة وطروحات رجال الشرطة وحِيَل القوّاد والشهود الآخرين ومرافعة المحامين... الآن أتحدّث عن الموضوع بهذه الطريقة، لكن في حينه، كان الأمر عبارة عن فوضى لا توصف، نوع من ألف ليلة وليلة من الكذب والنذالة. لذلك شعرت بالذنب أحيانًا إنّما بالفخر في معظم الأحيان. أمّنت لأمّي ما دأبت على البحث عنه في المدافن والأحياء الأوروبيّة في مدينة الجزائر. دامت قصّة هذا الكتاب الخياليّ من أجل امرأة مسنّة لا كلام عندها فترة طويلة. مرَّت بأطوار، افهمني جيّدًا. كنّا نمتنع عن الكلام عنها أشهرًا، لكنّها فجأة تبدأ بالتوتّر والتمتمة لتنتصب أخيرًا في وجهي ممسكة قصاصتي

الورق المدعوكتَيْن. شعرتُ أحيانًا بأنّني الوسيط الأضحوكةُ بين أمّي وكتابٍ شبحٍ تطرح عليه أسئلتها ويُفترض بي أنا ترجمة أجوبته.

هكذا بات تعلّمي اللّغة مطبوعًا بالموت. طبعًا قرأت كتبًا أخرى في التاريخ والجغرافيا، إنّما لا بدّ من ربط كلّ شيء بقصّتنا العائلية، بالجريمة التي ارتُكبت بحقّ أخي وهذا الشاطىء اللعين. لم تتوقّف لعبة الخداع هذه إلّا مع الأشهرالأخيرة التي سبقت الاستقلال، عندما تنبّهت أمّي ربّما إلى خطى جوزيف الموتورة، وكان لا يزال حيًّا، وهو يحوم في حجُّوط حول قبره منتعلًا صندل الشاطىء. كنت قد استنفدت كلّ موارد اللغة وخيالي. لم يبقَ أمامنا سوى الانتظار. ريثما يقع طارئ ما. إنتظار ذاك الليل الشهير عندما حطّ فرنسيّ مذعور في فنائنا المعتم. نعم، لقد قتلت جوزيف لإقامة التوازن مع عبثيّة وضعنا. ما الذي حلّ بقصاصتي الجرائد؟ الله أعلم. تفتّتتا أو ذابتا لفرط ما طُويتا وطويتا، أو إنّ أمي رمتهما في نهاية المطاف. لعلّني استوحيت كتابتي من كلّ ما اختلقته في حينه، لكنّني لم أكن أملك الإمكانات ولم أعلم بأنّ الجرم قد يستحيل كتابًا، وأنّ الضحيّة مجرّد ارتداد ضوء مشعّ. أهي

غلطتي؟

يمكنك أن تتخيّل إذن أيّ وقع أصابنا عندما قرعتْ في أحد الأيّام امرأة شابّة ذات شعر كستنائيّ قصير بابنا وطرحت سؤالاً لم يطرحه أحدٌ قطّ : «هل أنتم من عائلة موسى ولد العسّاس؟» كان ذلك في يوم الاثنين من شهر آذار(مارس) عام ١٩٦٣ . كانت البلاد في غبطة يشوبها خوف مضمر، لأنّ الوحش الذي تغذّى على مدى سبع سنوات من الحرب أصبح نهِمًا يرفض العودة إلى وكره تحت الأرض. فبين قادة الحرب المنتصرين نشب صراع ضارٍ على السلطة.

«هل أنتم من عائلة موسى ولد العسّاس؟»

مِرْيَم

أحيانًا أكرّر على نفسي هذه الجملة محاولًا استعادة نبرتها المرحة، البالغة التهذيب والرفيقة كبرهان ساطع على براءتها. أمّي هي التي فتحت الباب، أنا لم أكن بعيدًا. كنت مستلقيًا في إحدى زوايا الفناء، وتوانيت عن النهوض، فسمعت هذا الصوت النسائيّ الصافي ودُهشت. لم يسبق لأحد أن زارنا من قبل. كنّا أنا وأمي ثنائيًا يقطع مع كلّ تواصل اجتماعي، وأنا من كان يتفاداني الناس بنوع خاصّ. أنا كشابّ عازب سوداويّ

وصموت يعتبرونني جبانًا متذكّرين، بضغينة وثبات، أنّني لم أشارك في الحرب. لكنّ الأكثر غرابة هو سماعي شخصًا آخر غير أمّي يلفظ اسم موسى، فأنا كنت أذكره بـ«هو». قصاصتا الجرائد تشيران إليه فقط بالحرفين الأوّلين من اسمه، أو ربّما لا، لم أعد أعرف. وسمعت أمّي تسألها «من؟» وتستمع بعدها إلى شرح طويل لم أفهم فحواه. أجابتها أمّي «الأفضل أن تقولي ذلك لابني» ودعتها للدخول. فاضطررتُ إلى النهوض ونظرت إليها أخيرًا. رأيتُ امرأة نحيلة ذات عينين زيتيّتين، شمسًا جليّة متألّقة. أحرق جمالها قلبي وأحسست فراغًا في صدري. قبل اليوم، لم أنظر إلى أيّة امرأة كفرصة حياة. لقد شغلني كثيرًا خروجي من بطن أمّي ودفن الأموات وقتل الفارّين. فهمتَ قليلًا؟ كنّا نعيش منعزلَين وقد تعوّدت ذلك. وفجأة ظهرت تلك الشابّة وهي على وشك خطف كلّ شيء، حياتي، عالمنا أمّي وأنا. انتابني الخجل، والخوف. «إسمي مِريم». أجلستها أمّي على مقعد صغير، وانحسرت تنورتها، حاولت ألّا أنظر إلى ساقيها. أوضحت لي بالفرنسيّة أنها مدرِّسة وأنها تعمل على كتاب يروي قصّة شقيقي، كتاب من تأليف القاتل.

وقفنا هناك، أنا وأمّي، في الفناء، مذهولَين ومحاولين فهم ما يجري. كأنّ موسى بطريقة ما قام من الموت، زعزع قبره وأرغمنا مرّة جديدة على الشعور بوطأة الحزن الذي خلّفه فينا. لاحظت مِريم اضطرابنا فاستأنفت الشرح ببطء ولطف وحذر، توجّه الكلام تارة إلى أمّي وطورًا إليّ كمن يتحدّث همسًا مع مرضى في حالة نقاهة. بقينا صامتَين لكنّني خرجت في النهاية من خدري وطرحت عليها أسئلة لم تنجح في إخفاء اضطرابي.

في الواقع، بدا كما لو أنّ رصاصة سادسة وأخيرة اخترقت للتوّ جسد شقيقي مرّة أخرى، وبذلك يكون أخي موسى قد مات ثلاث مرّات على التوالي. المرّة الأولى عند الساعة الثانية ظهرًا في «يوم الشاطىء»، والثانية عندما حفرنا له قبرًا فارغًا والثالثة أخيرًا عندما دخلت مِريم حياتنا.

أتذكّر المشهد بشيء من الغموض، استنفار أمّي فجأة بعينين متّقدتين مسمّرتين، تروح وتجيء متشاغلة بإعداد الشاي أو إحضار السكّر، وظلّها يتضخّم على الجدران، وارتباك مريم. وقد باحت لي لاحقًا عندما بدأنا نتقابل خفية عن أمّي: «شعرت أنني بقصتي وأسئلتي كنت أقاطع عملية دفن...».

قبل أن تغادر، كنّا وحدنا نحن الاثنين، فأخرجت من حقيبتها الكتاب الشهير، وهو نفسه الذي تحتفظ به بكلّ عناية ودراية في محفظة أوراقكَ. بالنسبة إليها، كانت مجرّد قصّة عادية. هو كاتب مشهور روى قصّة مقتل عربي وجعل منها كتابًا مؤثّرًا، «كشمس حُبِست في علبة»، إنّها عبارتها، أتذكّرها. أثارت هويّة العربيّ فضولها فقرّرت إجراء تحقيقها الخاصّ، وتمكّنت بسعيها الحثيث من تقفّي أثرنا. قالتها لي بابتسامة آسرة: «أمضيت أشهرًا وأشهرًا وأنا أدقّ الأبواب وأسأل شتّى أنواع الناس، فقط لأعثر عليكما...». وأعطتني موعدًا في اليوم التالي، في المحطّة.

وقعتُ في حبّها من اللحظة الأولى، ثمّ سرعان ما كرهتها بالقدر نفسه لأنّها دخلت عالمي متعقّبة آثار ميت، فزعزعت توازني. يا إلهي، ملعون أنا!

XIV

شرحت لنا مِريم، بتلك النبرة الهادئة واللطيفة التي سحرتنا، أنّها أمضت أشهرًا تتقفّى أثرنا، انطلاقًا من باب الودّ حيث لم يتذكّرنا أحد تقريبًا. كانت تعدّ أطروحة، مثلكَ أنت، عن بطلك وهذا الكتاب الغريب يروي فيه جريمة قتل بعبقريّة عالم رياضيّات منكبّ على ورقة ميتة. سعت إلى إيجاد عائلة العربيّ، وهو ما قادها إلينا بعد تحقيق طويل ما وراء الجبال، في بلاد الأحياء.

ثمّ انتظرت، لا أدري أيّ غريزة دفعتها، أن تتركنا أمّي لدقائق كي تريني الكتاب. كان من القطع الصغير، على غلافه لوحة مائيّة منقولة تصوّر رجلًا في بذلة ويداه في جيبيه وظهره في نصف استدارة إلى البحر في عمق الصورة. ألوان باهتة من الباستيل المموّه. هذا ما أذكره. كان عنوانه **الآخر**، واسم

القاتل مدوّنًا بحروف سوداء ومستقيمة في الأعلى لجهة اليمين: مورسو. لكنّني كنت شارد الذهن، مرتبكًا في قربي من هذه المرأة. تجرّأت على اختلاس النظر إلى شعرها ويديها وعنقها فيما هي تتبادل المجاملات مع أمّي التي عادت من المطبخ. مذّاك وأنا أحبّ، على ما أعتقد، مراقبة النساء من الخلف؛ ترقّب الوجه المحجوب وتباشير الجسد البعيد المنال عنك. حتّى إنني فوجئت بنفسي، أنا الذي لا خبرة لي في الموضوع، أفتّش عن اسم خياليّ لعطرها. لاحظت فورًا ذكاءها المتّقد والثاقب تصحبه بعض البراءة. وبحسب ما أخبرتني لاحقًا، هي ولدت في قسنطينة، في شرق البلاد. وادّعت أنّها «امرأة حرّة»، مشدّدة على ذلك بنظرة تحدٍّ تعكس إلى حدٍّ كبير مقاومتها النزعة العائليّة المحافظة.

نعم، حسنًا، أنا أشرد من جديد. تريد أن أحدّثك عن الكتاب، عن ردّ فعلي عندما رأيته؟ في الحقيقة، لم أعد أعرف من أين أبدأ بالحديث عن هذا الفصل. رحلت مِريم بعطرها وعنقها ولطفها وابتسامتها، وكنت قد بدأت أفكّر في الغد. أصابتنا الجُمدة، أمّي وأنا. فقد اكتشفنا للتوّ، ومن حيث لا ندري، آثار خطى موسى الأخيرة، واسم قاتله الذي

لم يُعرف قطّ ومصيره الاستثنائيّ. وأطلقت أمّي عبارتها: «مكتوب!»، ودُهشتُ لصحّة قولها العفويّ. «مكتوبٌ» نعم، مكتوب على شكل كتاب، لا بإملاء أيّ إله. هل خجلنا من غبائنا؟ هل لجمنا رغبة قويّة في الانفجار بالضحك، نحن، الثنائيّ الوضيع المدسوس في كواليس رائعة أدبيّة كنّا نجهل وجودها؟ كان العالم أجمع يعرف القاتل، وجهه، نظرته، أماراته وحتّى ملابسه، ما عدانا... نحن الاثنين! والدة العربيّ وابنها، الموظّف البائس في مصلحة تفتيش الأملاك العامّة. ساذجان مسكينان من أبناء البلد لم يقرآ شيئًا بل تلقّيا كلّ شيء. مثل الحمير. أمضينا الليل نتفادى أن تلتقي نظراتنا. يا إلهي كم كان مؤلمًا اكتشاف حماقتنا! وطال الليل. لعنت أمّي الفتاة الشابة ثمّ لزمَتْ الصمت. أمّا أنا، فكنت أفكر في نهديها وشفتيها تتحرّكان كثمرة يانعة. في صباح اليوم التالي، هزّتني أمّي بعنف وانحنت فوقي كساحرة عجوز مرعبة وأمرتني: «إذا عادت فلا تفتح الباب!». كنت قد شاهدتها آتية وعرفت السبب. إلا أنّني أعددتُ ردّي، أنا أيضًا.

تعرف يا عزيزي أنّني بالطبع لم أفعل شيئًا. خرجت باكرًا من دون أن أتأخّر كالعادة في شرب قهوتي. وانتظرت مِريم، كما

اتّفقنا، في محطة حجُّوط، وعندما رأيتها في باص الجزائر شعرت بثقب في قلبي. حتّى وجودها لم يعد كافيًا لملء ما كان يُحفر في داخلي. تلاقينا وجهًا لوجه، شعرت أنّني بليد أرعن. قابلتني ببسمة، من عينيها أوّلًا، ثم من فمها العريض المشرق. قلت لها بصوت متلعثم إنّني أريد أن أعرف المزيد عن الكتاب ومشينا.

دام ذلك أسابيع، أشهرًا، دهورًا.

لا بدّ أنك فهمت أنّني سأكتشف ما نجحت أمّي دومًا في تعطيله بحرصها عليّ، أعني الهياج والرغبة والأحلام والترقّب وجنون الحواس. هذا ما كانوا يسمّونه في الكتب الفرنسيّة القديمة «عذاب الحبّ». لا يسعني أن أصف لك تلك القوى التي تستحوذ على جسدك عندما تحبّ. الكلمة بالنسبة إليّ ضبابيّة مبهمة. إنّها كدودة أم أربع وأربعين عشواء تزحف على ظهر شيء ما بالغ الضخامة. بالتأكيد الذريعة هي الكتاب. هذا الكتاب وغيره من الكتب. أرتني إيّاه مِريم مرّة أخرى، وقد أُصبت بالدوار حين شرحت لي بصبر هذه المرّة وفي كلّ مرّة التقينا فيها، ظروف كتابته ونجاحاته والكتب التي استوحيت منه والحواشي اللامتناهية حول كلّ فصل.

لكن في ذلك اليوم، ذلك اليوم الثاني، رحت أنظر على نحو خاصّ إلى أصابعها على صفحات الكتاب، إلى أظافرها الحمراء تتنقّل على الورق ولم أهتمّ بالتفكير في ما ستقوله لو أمسكت بيديها. هذا ما فعلته في النهاية، وقد أضحكها ذلك. عرفَتْ أنّه ما همّني أمر موسى كثيرًا في تلك اللحظة. لمرّة واحدة على الأقلّ. إفترقنا في بداية ما بعد الظهر ووعدتني بالعودة. لكنّها سألتني كيف يمكنها أن تبرهن، في سياق بحثها، أنّنا وأمي كنّا فعلًا عائلة العربيّ. شرحت لها بأنّ تلك مشكلتنا القديمة، وأنّنا لا نكاد نحمل اسم عائلة. أضحكها ذلك مجدّدًا، وأزعجني ضحكها. بعدها توجّهت إلى المكتب. لم أفكّر حتّى في ما سيظنّونه عن غيابي! ما همَّني ذلك، يا صديقي.

طبعًا، في الليلة نفسها، شرعت أقرأ في الكتاب اللعين. تقدّمت ببطء في قراءتي، لكنّني كنت كالمفتون. شعرت في الوقت نفسه بالإهانة وباكتشاف ذاتي. ليلة كاملة أمضيتها في القراءة كمن يقرأ كتاب اللـه نفسه، وقلبي ينبض بقوّة حتى الاختناق. صدمة حقيقيّة. ورد فيه كلّ شيء إلاّ الأساس: اسم موسى! لم أجده في أيّ مكان. عدَدت وكرّرت العدّ،

وردت كلمة «العربيّ» خمسًا وعشرين مرّة، من دون ذكر أيّ اسم أوّل، لأيّ منّا. لا شيء البتّة يا صديقي. فقط الملح والانبهارات وتأمّلات في حياة الإنسان المكلّف تنفيذ مهمّة إلهيّة. كتاب مورسو لم يطلعني على أيّ جديد عن موسى سوى أنّه كان بلا اسم، حتّى في اللحظة الأخيرة من حياته. في المقابل، سمح لي باكتشاف روح القاتل كما لو كنت ملاكه. وجدت فيه ذكريات غريبة مشوّهة، كوصف الشاطىء والتوهّج المذهل ساعة الجريمة، والكوخ الصغيرالذي لم يعثرعليه قطّ، وأيّام المحاكمة والساعات في الزنزانة، فيما، كنّا أنا وأمي، نجوب شوارع مدينة الجزائر بحثًا عن جثّة موسى. بدا لي كما لو أنّ هذا الرجل، كاتبك، سلبني توأمي، زوج، وصورتي وحتّى تفاصيل حياتي وذكريات استجوابي! أمضيتُ الليل بكامله في القراءة، كلمة كلمة، بتأنّ. كانت تلك دعابة بكلّ معنى الكلمة. بحثت فيها عن آثار شقيقي ووجدت فيها انعكاسًا لي، واكتشفت أنّني شبيه القاتل. وصلت في النهاية إلى الجملة الأخيرة من الكتاب: «(...) لم يبق لي سوى الأمل في أن يكون هنالك الكثير من المشاهدين يوم إعدامي وأن يستقبلوني بهتافات الكراهيّة». يا إلهي كم

أردت ذلك! لا شكّ في أنّه حضر الكثير من المشاهدين، إنّما لجريمته لا لمحاكمته. وأيّ مشاهدين! أتباع مناصرون، وثنيّون! لم ترتفع قطّ أيّ هتافات بُغض وسط هذا الحشد من المعجبين. لقد بلبلتني تلك الأسطر. إنّها تحفة يا صديقي. مرآة لروحي ولما سأصيره في هذا البلد، بين الله والملل.

لم أنمْ تلك الليلة، لا بدّ أنّك خمنتَ ذلك، ورحتُ، بجانب شجرة الليمون الحامض، أتأمّل السماء.

لم أُرِ أمّي الكتاب. وإلاّ لأجبرتني على قراءته لها مرارًا وتكرارًا، إلى ما لانهاية، إلى يوم الدينونة، أقسم لك على ذلك. عند الفجر مزّقتُ غلافه وخبّأتُه في إحدى زوايا الحظيرة. طبعًا لم أكلّم أمّي عن لقائي البارحة مع مِريم لكنّها استشفّت من نظراتي وجود امرأة أخرى في دمي. لم تعد مريم أبدًا إلى منزلنا. ظللت أقابلها في الأسابيع التالية، طوال الصيف عمليًا، وكنّا قد توافقنا على أن أحضر كلّ يوم إلى المحطة فأنتظر الباص الآتي من مدينة الجزائر. حين سمح وقتها، تحضر فنقضي ساعات معًا، نمشي ونتسكّع، ونتمدّد أحيانًا تحت شجرة لكن ليس لفترة طويلة. عندما لا تأتي كنت أعود أدراجي وأذهب إلى عملي. صرت آمل ألاّ

يُستنفَد الكتاب أبدًا، أن يمتدّ إلى ما لا نهاية، كي تبقي كتفها مسنودة إلى صدري المنفعل. حكيت لها كلّ شيء، عن طفولتي ويوم وفاة موسى وتحقيقنا نحن الأميّيْن الأخرقيْن، وعن القبر الفارغ في مدافن القطّار والقوانين الصارمة في حدادنا العائليّ. السرّ الوحيد الذي تردّدت في مشاركتها إيّاه هو مقتل جوزيف. علّمتني قراءة الكتاب بطريقة معيّنة فصرت أحرفه جانبيًا كأنّني أرمي منه تفاصيل خفيّة. أهدتني المؤلّفات الأخرى التي كتبها هذا الرجل، وكتبًا أخرى، جعلتني أفهم تدريجيًا نظرة بطلك إلى العالم. شرحت لي مِريم بروية عن معتقداته وصوره الموحشة المذهلة. فهمت أنّه كان أشبه بيتيم عرف في العالم نوعًا من توأم له من دون أب، فاكتسب بالتالي هبة الأخوّة نتيجة وحشته تحديدًا. لم أفهم كلّ شيء، وبدت لي مِريم أحيانًا كمن يتحدّث عن كوكب آخر، وهي تحلَّت بصوت أحببت سماعه. أحببتها من كلّ قلبي. الحبّ. يا له من شعور غريب، أليس كذلك؟ إنّه يشبه حالة السكر، فيها فقدان التوازن والحواسّ، لكن ترافقها حدّة بصيرة دقيقة وغيرمجدية بشكل غريب.

منذ البداية، ولأنّي ملعون، عرفت أن قصّتنا ستنتهي، وأنه لا

أمل لي في الاحتفاظ بمِريم في حياتي، لكنّني في حينه لم أُرِد إلا شيئًا واحدًا، أن أسمع أنفاسها قربي. إكتشفت مِريم حالتي وشعرت بشيء من المرح قبل أن تتحقّق من عمق جحيمي. هل هذا ما أخافها؟ أعتقد ذلك. أو أنّها سئمت في النهاية، إذ لم أعد أسلّيها، بعد أن استنفدت هذا المجال الجديد والغريب، عالمي، لم تعد تشغلها «ظاهرتي».

أشعر بالمرارة لأنّي مخطئ. أقسم لكأنَّها لم تصدّني، لا بل بالعكس، أعتقد أنّها أحسّت تجاهي بنوع من الحبّ. لكنّها اكتفت بأن أحبّت حزني، إذا جاز التعبير، وأحالت عذابي إلى نُبلٍ نفيس، ثمّ رحلت، في وقت بدأتُ فيه أبني قصرًا أو مملكة من الوهم. مذّاك وأنا أخون النساء، بشكل منتظم، وأخصّص أحسن ما عندي للبَين والفراق. إنّه البند الأوّل المدوّن على صحيفة حياتي. أتريد تدوين تعريفي للحبّ؟ إنّه تعريف فخم وصادق، اختلقته بنفسي. الحبّ هوأن تُقبّل حبيبك وتشاركه لعابه وتغوص في ماضيه وصولًا إلى ذكرى ولادته الغامضة. لذلك صرتُ لجذب حنان وعطف النساء غير المتورّعات أدّعي الترمّل، فتقرّبت منّي نساء شقيّات وأخريات في ريعان الشباب تفوتهنّ هذه الأمور.

بعد أن تركتني مريم، قرأت الكتاب وأعدت قراءته. مرّة تلو الأخرى. أردت أن أعثر فيه على آثار تلك المرأة، وأسلوبها في القراءة، ونبرات صوتها المجتهدة. أمر غريب، أليس كذلك؟ الانطلاق للبحث عن الحياة عبر الدليل الساطع على الموت! لكن ها إنني أشرد مجدّدًا. هذه الاستطرادات تزعجك على الأرجح. لكن. . .

في أحد الأيّام، التقينا تحت شجرة، عند طرف القرية. كانت أمّي تتظاهر بأنّها تجهل كلّ شيء لكنّها كانت تعرف أنني أقابل تلك الفتاة التي أتت من المدينة لتنبش قبورنا. كانت علاقاتنا قد تغيّرت وراودني ميل جارف إلى عنف حاسم يخلّصني نهائيًا من تلك الأمّ المتغوّلة. لامست نهدي مِريم عن غير قصد. كنت مسترخيًا في ظلّ الشجرة الحارق وقد ألقت رأسها على فخذي. ثمّ رفعت جسمها قليلًا لتنظر إليّ، وقد غطّى شعرها عينيها وضحكت ضحكة مخنوقة ملؤها أضواء حياة مختلفة. ملت على وجهها. وطاب لي الجوّ، فقبّلت مازحًا شفتيها المفتوحتين على ابتسامتها التي انطفأت. لم تقل شيئاً وبقيتُ كما أنا، منحنيًا. عندما رفعت رأسي فامتلأت عيناي بسماء زرقاء وذهبيّة. أحسست بثقل رأس مِريم على فخذي. بقينا

كذلك لفترة طويلة، في حالة خدر. عندما اشتدّ الحرّ نهضتْ فتبعتها. لحقتُ بها، أحطتُ خصرها بيدي ومشينا معًا جسدًا واحدًا. ظلَّت تبتسم بعينين مغمضتين على صورتي. وصلنا إلى المحطّة متعانقيْن. كان ذلك ممكناً في تلك الحقبة، لا كما هي الحال اليوم. وفيما نحن نتبادل النظرات بحشريّة متجدّدة أثارتها رغبة الجسديْن، قالت لي: «إنني أشدّ اسمرارًا منك». فسألتها إن كان باستطاعتها العودة، ذات مساء. ضحكت مرّة أخرى وكفأت رأسها أن لا. فتجرّأتُ وسألتها: «أتقبلين بي زوجًا؟» فشهقت متفاجئة، كأنّها طعنت فؤادي. لم تتوقّع ذلك. كانت تفضّل، على ما أظنّ، أن تعيش هذه العلاقة من باب اللهو الطبيعيّ لا كمقدّمة لالتزام جدّي. و«أرادت عندها أن تعرف إن كنت أحبّها». أجبتها أنّني لا أعرف ما معنى أحبّك عندما ألفظ الكلمات، لكن عندما أصمت، يصبح الأمر بديهيًا في رأسي. أنت تبتسم؟ إحِمْ، هذا يعني أنّك فهمت... نعم، هذا تلفيق. من أوّله إلى آخره. المشهد متكامل تمامًا، وأنا اخترعت كلّ شيء. بالتأكيد أنا لم أجرؤ على قول كلام بوح قطّ مع مِريم. فجمالها المفرط وتصرّفها الطبيعيّ وما هي موعودة به من حياة أفضل من حياتي، حكمت

عليّ جميعها دومًا بالصمت. إنّها من نوع النساء الذي اختفى اليوم من هذا البلد، حرّة، آسرة، متمرّدة، وتعيش جسدها كهبة لا كخطيئة أو عار. المرّة الوحيدة التي رأيت فيها وجهها يمتقع كانت عندما حكت لي عن والدها المتسلّط والمتعددّ الزوجات والذي كانت نظرته الشهوانيّة تثير في نفسها الريبة والذعر. أنقذتها الكتبُ من عائلتها ومنحتها ذريعة للابتعاد عن قسنطينة. فالتحقت، فوراستطاعتها، بجامعة الجزائر العاصمة.

رحلت مِريم في نهاية الصيف. لم تدم قصّتنا سوى بضعة أسابيع، ويوم أدركت أنّها رحلت إلى الأبد، كسّرت كلّ الأواني في المنزل وأنا أشتم أمّي وموسى وضحايا العالم أجمعين. أذكر، وأنا في سورة غضبي، أمّي جالسة، بهدوء، تراقبني وأنا أفرغ معاناتي، رابطة الجأش، شبه متمتّعة بانتصارها على نساء العالم كافّة. وما أعقب ذلك كان الغرق في حزنٍ عميق. كانت مِريم تبعث إليّ برسائل أستلمها في المكتب، وأردّ عليها بسخط وغضب. كانت تشرح لي عن دراساتها وتقدّم العمل على أطروحتها، وعن خيبات أملها هي الطالبة المتمرّدة، ثمّ تلاشى كلّ شيء بهدوء. أصبحت

الرسائل أقصر وأقلّ تواترًا. في أحد الأيّام، لم يعد هنالك، بكلّ بساطة، أيّ رسائل. لكن، مع ذلك، بقيت أنتظر باص الجزائر في المحطّة على مدى أشهر وأشهر، فقط لتعذيب ذاتي.

=

إسمع، أعتقد بأنّ هذا آخر موعد بيني وبينك، أصرّ عليه كي يجلس إلى طاولتنا. سيأتي هذه المرّة...

مرحبًا سيّدي. يبدو أنّك ذو أصول لاتينيّة، ليس هذا مستغربًا على الإطلاق في هذه المدينة التي وهبت نفسها لكلّ بحّارة العالم، منذ قديم الزمان. أنت مدرّس؟ لا. حسنًا. موسى، زجاجة أخرى وزيتونًا من فضلك! ماذا؟ هذا الرجل أصمّ وأبكم؟ ضيفنا لا يتكلّم أيّ لغة؟ أصحيح ذلك؟! هو يقرأ على الشفاه... أنت تجيد القراءة على الأقلّ! مع صديقي الشاب كتاب لا أحد فيه يسمع أحدًا. لا بدّ أن يعجبك. قد يكون مثيرًا للاهتمام أكثر من قصاصات جرائدك على أيّ حال.

ماذا يمكن أن تسمَّى هذه الحكاية التي تجمع حول طاولة واحدة نادلًا قبائليًا ضخم البنية وشخصًا أصمّ أبكم، مسلولاً على الأرجح، وجامعيًا شابًا ذا نظرات مشكّكة ومدمن خمرة عجوزًا لا يملك أيّ إثبات على ما يقوله؟

XV

سامِح الشيخ المسنّ الذي صرته اليوم. هذا لغز كبير. أنا اليوم عجوز لدرجة أنّني غالبًا ما أقول لنفسي، في الليالي التي تتلألأ فيها النجوم بكثرة في السماء، إنّ هناك حتمًا شيئًا يجب أن نكتشفه عندما نعيش طويلًا. كلّ تلك الجهود للعيش! يُفترض في النهاية أن يكون هنالك نوع من رؤيا أساسيّة. يصدمني هذا التفاوت بين ضآلتي وهذا العالم الوسيع، وغالبًا ما أقول في نفسي إنّه لا بدّ من وجود شيء ما، في الوسط، بين عاديّتي والكون!

لكنّني غالبًا ما أنتكس أيضًا، فأروح أجوب الشاطىء، حاملًا المسدّس بيدي، بحثًا عن أوّل عربيّ يشبهني كي أقتله. قل لي ما الذي يمكنني فعله بقصّتي، سوى إعادة تمثيلها إلى ما لا نهاية؟ لا تزال أمّي على قيد الحياة، لكنّها بكماء. لم نعد

نتحادث منذ سنوات، وأكتفي بشرب قهوتها. لا تعنيني سائر أنحاء البلاد، باستثناء شجرة الليمون والشاطىء والتخشيبة والشمس وصدى الطلقة الناريّة. عشت لفترة طويلة على هذه الحال، أسير في نومي ليلًا بين المكاتب حيث عملتُ ومنازلي المختلفة. مشاريع قصص مع بعض النساء والكثير من الإنهاك. لا، لم يحدث شيء بعد رحيل مِريم. عشت في البلد كالآخرين، لكن مع انكفاء ولامبالاة مضاعفين. شهدتُ استنفاد حماسة الاستقلال وسقوط الأوهام، ثمّ بدأتُ أشيخ وها أنا هنا الآن، جالس في حانة، أروي لك تلك القصّة التي لم يسعَ أحدٌ إلى الاستماع إليها، إلا مِريم وأنت، وشاهد علينا أصمّ وأبكم.

عشت كشبح يراقب الأحياء يتحرّكون في أقفاصهم. عرفت حالات الدوار التي تصيب الإنسان الذي يحمل سرًّا خطيرًا ودار في رأسي مونولوغٌ لا نهاية له. مرّت بي أوقات شعرت فيها برغبة قويّة في أن أصرخ في وجه العالم أنّني شقيق موسى وبأنّنا، أمّي وأنا، الأبطال الحقيقيّون الوحيدون لتلك القصّة التي أصبحت مشهورة، لكن من كان ليصدّقنا؟ من؟ أيّ إثباتات يمكننا أن نقدّمها؟ حرفان أوّلان من اسم ورواية

بلا اسم علم؟ والأسوأ هو عندما بدأ المتكالبون الواهمون يتعاركون ويتناتشون لمعرفة ما إذا كان بطلك من جنسيّتي أو من جنسيّة جيرانه في المبنى. يا لها من مُزحة! وسط تلك المعمعة، لم يتساءل أحد ما هي جنسيّة موسى. كانوا يشيرون إليه بـ«العربيّ»، حتّى عند العرب. قل لي، هل «العربيّ» جنسية؟ أين هو هذا البلد الذي يعلن الجميع أنهم أحشاؤه، من رحمه، والذي لا وجود له في أيّ مكان؟

تردّدت مرّات على مدينة الجزائر. لا أحد يتحدث عنّا، عن شقيقي، عن أمّي، عنّي. لا أحد! بدت لي هذه العاصمة الغريبة التي تعرض أحشاءها على الملأ أسوأ إهانة لهذه الجريمة التي لم تلق عقابًا. ملايين الـ«مورسو» مكدّسون بعضهم على بعض، محاصرون بين شاطىء وسخ وجبل، مخبولون تحت وطأة الجريمة والسبات، يتصادمون لضيق المساحة. ربّاه كم أكره هذه المدينة، صوت مضغها المقيت، روائح الخضار العفنة والزيت المقلي الكريه! خليجها ليس خليجًا بل فكّ. طبعًا ليست هي من سيردّ لي جثّة أخي، أوَتعتقد؟ تكفي رؤية تلك المدينة من الخلف لندرك اكتمال الجريمة. أراهم في كلّ مكان، أمثال بطلك «مورسو»، حتّى في البناية التي أسكنها،

هنا في وهران. هنالك قبالة شرفتي، تمامًا وراء البناية الأخيرة في المدينة، مسجد ضخم لم يُنجز بناؤه بعد، على غرار الآلاف غيره في هذا البلد. غالبًا ما أنظر إليه من نافذتي وأكره هندسته ومئذنته الضخمة الموجّهة نحو السماء والباطون الذي لا يزال عاريًا. كما أكره إمامه الذي ينظر إلى رعاياه كما لو كان قيّمًا على مملكة. ومئذنة مقيتة تثير فيّ الرغبة بالتجديف إلى أقصى حدّ. كأن أكرّر مثلاً، على خطى إبليس نفسه: «أنا خيرٌ منه (من آدم) خلقتني من نارٍ وخلقته من طين (الأعراف: ١٢)»... أشعر أحيانًا بالرغبة بتسلّقها، إلى حيث تُعلّق مكبّرات الصوت فأغلق على نفسي بإحكام، وأطلق أكبر قدر ممّا عندي من كلام التحقير والتدنيس، عارضًا قائمة بتفاصيل كفري. وأصرخ بأنّني لا أصلّي ولا أتوضّأ ولا أصوم وأنّني لن أذهب أبدًا الى الحجّ وأنّني أشرب نبيذًا، مصغيًا إلى ألحان تضاعف طعمه. أن أصيح بأعلى صوتي أنّني حرّ وبأن الله سؤال لا جواب وأنّني أريد أن أسعى للقائه وحدي كما ولدتني أمّي وكما سأصير تحت التراب.

زار بطلك كاهن في زنزانته حيث كان ينتظر إعدامه. أمّا أنا، فتلاحقني زُمرة من المتزمّتين، وتحاول إقناعي بأنّ الحجارة

في هذا البلد لا تنضح إلّا بالألم وبأنّ عين اللـه ساهرة. سوف أصرخ في وجوههم أنّني أرى تلك الجدران غير المكتملة منذ سنوات. وأنّه ما من شيء أو أحد في العالم أعرفه أفضل منها. قد أكون لمحت منذ زمن طويل شيئًا ربّانيًا. كان لذاك الوجه لون الشمس ولهيب الرغبة. كان وجه مِريم. سعيت لأعثر عليه مجدّدًا، لكن بلا جدوى. الآن انتهى كلّ شيء. أتتخيّل المشهد؟ أنا أصرخ عبر مكبّر الصوت وهم يحاولون كسر باب المئذنة لإسكاتي. قد يحاولون إقناعي بالعودة إلى رشدي ويقولون لي مذعورين إنّ هنالك حياة بعد الموت. قد أجيبهم عندها: «حياة تمكّنني من أن أتذكّر فيها حياتي هذه!» وبعدها سأموت، مرجومًا ربّما، والمذياع بيدي، أنا هارون، شقيق موسى، ابن الأب المفقود. يا له من استشهادِ مشهديّ! أن تصرخ بحقيقتك عارية. أنت تعيش في مكان آخر، لا يمكنك أن تفهم ما الذي قد يعانيه عجوز لا يؤمن باللـه ولا يذهب إلى المسجد ولا يترقّب الجنّة، لا زوجة له ولا ولد ويُشهر حريّته من باب الاستفزاز.

في أحد الأيام، حاول الإمام أن يحدّثني عن اللـه قائلًا لي إنّني عجوز وإنه يُفترض بي على الأقلّ أن أصلّيَ كالآخرين،

لكنّني دنوت منه وحاولت أن أشرح له أنّه لم يبقَ لي سوى القليل من الوقت وأنّني لا أريد أن أبدّده مع اللـه. حاول تغيير الموضوع فسألني لماذا أناديه بـ«السيد» لا «الشيخ». أغاظني ذلك وأجبته أنّه ليس مرشدي، وأنّني أعتبره مثل الآخرين. قال لي واضعًا يده على كتفي: «لا يا أخي، أنا معك. لكنّك عاجزعن معرفة ذلك لأنّك أعمى القلب والبصيرة. سأصلّي لأجلك». عندها لا أدري لماذا، شعرت بأن شيئًا ما انفجر في داخلي. بدأت أصرخ ملء حنجرتي وشتمته وقلت له إنّه ليس مطلوبًا منه أبدًا أن يصلّي لأجلي. أمسكت به من ياقة توبه، وأفرغت عليه كلّ ما يعتمل في قلبي، ببهجة وغضب على حدّ سواء. بدا واثقًا جدًا بنفسه، أليس كذلك؟ علمًا أن أيًا من قناعاته ما كان ليساوي خصلة من شعر المرأة التي أحببت. لم يكن حتى واثقًا بأنّه يحيا لكونه يعيش كالميت. أنا بدوت فارغ اليدين لكنّني كنت واثقًا بنفسي، واثقًا بكلّ شيء، واثقًا بحياتي وبهذا الموت الذي سيأتي. نعم، لم يكن لي سوى ذلك. لكنّني كنت، على الأقلّ، أمتلك تلك الحقيقة بقدر ما كانت تمتلكني. كنت على حقّ، ولا أزال على حقّ، وسأبقى دومًا على حقّ. كما لو أنني ترقّبت دومًا تلك الدقيقة وبزوغ

هذا الفجر الصغير حين ستتمّ تبرئتي. لا شيء، لم يكن لأي شيء أهمّيّة وكنت أعرف السبب تمامًا. هو أيضاً يعرف لماذا. حياتي العبثيّة ومستقبلي يتراءيان لي كما تتراءى لي روحي الغامضة. ما همّني موت الآخرين أومحبّة أمّي، وما همّني إلهه أو ما نتّخذه من خيارات لحياتنا أو مصائرنا، طالما أنّ مصيرًا واحدًا مقرّرٌ لي أنا، ومعي مليارات الأشخاص المميّزين الذين يدّعون، مثله، أنّهم إخواني. هل كان يفهم، هل كان يفهم إذن؟ لكلّ إنسان ما يميّزه، كلّنا متميّزون. الآخرون أيضًا، سندينهم يومًا ما. هو أيضًا سندينه، إذا ما كان العالم حيًا. ما النفع إن كان، وهو متّهم بالقتل، قد أُعدم لعدم بكائه يوم دفن أمّه، أوأن أُتّهم أنا بارتكاب جريمتي في ٥ تموز (يوليو) عام ١٩٦٢ لا قبله بيوم واحد؟

كانت زوجة سالامانو وكلبها سواسية بالنسبة إليه. المرأة الميكانيكيّة الصغيرة كانت مذنبة بقدر المرأة الباريسية التي تزوّجها ماسون أو ماري التي رغبت بي زوجًا. ما همّ إن كانت شفاه مِريم تُقدّم اليوم لشخص غيري؟ هل كان ليفهم، هذا المحكوم بالإعدام، أنّني من أعماق مستقبلي... كنت أختنقُ وأنا أصرخ بكلّ ذلك. لكن سُحِب الإمام من بين يديّ

وطوّقتني آلاف الأذرع معطّلةً حركتي. لكنّ الإمام هدّأ من روعهم ونظر إليّ لحظة، بصمت. إغرورقت عيناه بالدموع ثمّ أدار ظهره وتوارى.

تسألني إن كنت أؤمن بالله؟ أنت تضحكني بذلك! بعد كلّ تلك الساعات التي قضيناها معًا... لست أعلم لماذا في كلّ مرة يطرح فيها أحد ما سؤالًا عن وجود الله، يلتفت إلى الرجل منتظرًا الجواب. إطرحوا السؤال عليه هو، مباشرة! أحيانًا أشعر فعلًا بأنّني داخل تلك المئذنة وأسمعهم هناك يحاولون كسر الباب الذي أقفلته بإحكام، منادين بموتي حتّى الموت. ها هم هنا، خلف الباب تمامًا، يستشيطون غضبًا. أتسمع صوت تصدّع الباب؟ قل لي أتسمعه؟ أنا أسمعه، نعم. سينخلع. وأنا؟ بمَ أصرخ؟ بجملة واحدة لا أحد يفهمها: «ما من أحد هنا! لم يكن من أحد هنا على الإطلاق! المسجد فارغ، والمئذنة فارغة. إنّه الفراغ!» طبعًا سيكون هناك الكثير من المتفرّجين يوم إعدامي وسيستقبلونني بهتافات الكراهية. ربّما كان بطلك على حقّ منذ البداية: لم ينجُ أحد في تلك القصّة. مات الجميع ضربة واحدة، دفعة واحدة.

اليوم، أمّي ما زالت حيّة، لكن ما النفع! هي لا تكاد تتفوّه

بكلمة. وأنا أتكلّم كثيرًا على ما أعتقد. هذا هو عيب القتلة الذين لم يَلقوا عقابًا، هذا ما عرفه كاتبك أيضًا... صحيح، تذكّرت، دعني أخبرك نكتة أخيرة من بنات أفكاري. أتعرف كيف يلفظون اسم «مورسو» بالعربيّة؟ لا؟ «المرسول»، أي «المرسل» أو «الرسول». لا بأس بها، أليس كذلك؟ حسنًا، هذه المرّة فعلًا عليّ أن أتوقّف. الحانة ستقفل أبوابها والجميع ينتظرأن ننهيَ كأسينا. تصوّر أنّ الشاهد الوحيد على لقائنا هو أبكم أصمّ حسبته معلّمًا، متعته الوحيدة قصقصة مقالات من الجرائد وتدخين السجائر! يا ربّ كم تحبّ أن تسخر من مخلوقاتك...

هل تناسبك قصّتي؟ هذا كلّ ما يمكنني أن أقدّمه إليك. هذا كلامي، إمّا أن تقبله أو أن ترفضه. أنا شقيق موسى أو شقيق لا أحد. مجرّد شخص مولع بالكذب اجتمعتَ به لملء دفاترك... الخيار لك يا صديقي. الأمر شبيه بسيرة الله. هذا ها، ها! لم يسبق لأحد أن التقاه، ولا حتّى موسى، ولا أحد يعلم ما إذا كانت قصّته حقيقيّة أم لا. «العربيّ» هو «العربيّ»، والله هو الله. ما من اسم، ما من أحرف أولى. زرقة بذلة العمل وزرقة السماء. مجهولان وقصّتان على شاطىء لا

نهاية له. أيّهما أصح؟ سؤال جوهريّ. عليك أنت أن تبتَّ.

المرسول. ها، ها.

أنا أيضًا أودّ أن يكون المتفرّجون عليّ كثرًا وأن تكون كراهيتهم ضارية.

تم الطبع من طرف متيجة للطباعة

549 شارع مصطفى جعدي براقي الجزائر

الهاتف : 023.91.13.04


https://telegram.me/maktabatbaghdad

مُعارضة الغريب

Meursault, contre-enquête

نقلها إلى العربيّة : ماريّا الدويهي وجان هاشم.

ليلةً تلوَ أخرى يلتقي هارون، شقيق موسى، أحد أشهر قتلى الأدب العالميّ، بطالب فرنسيّ يُعِدُّ أطروحةً عن "العربيّ"، قتيل بطل ألبير كامو، مورسو، المخَلَّد في رواية "الغريب" ـــ إحدى الروايات الأكثر تدريسًا في المدارس والجامعات في العالم والأكثر مبيعًا بين الكتب منذ سبعين عامًا ـــ وعن عائلته المنكوبة التي لزمتْ الصمت أكثر من نصف قرن.

يسرد هارون على الطالب قصَّتَهُ، قصَّتَهُم: قصّة الوالد الحارس الليليّ الذي هجر الوالدة والأبناء وغادر إلى جهة مجهولة، قصّة الوالدة الثكلى الساعية إلى الثأر لدم ابنها موسى، قصّة الثورة الجزائريّة ومغادرة الفرنسيّين البلاد، قصّة ثأره لشقيقه وغيرها من خيبات الوطن.

يعارض كمال داود في روايته هذه "غريب" كامو؛ والمعارضة نوعٌ أدبيٌّ راق عرفه الأدب العربيّ كما سواه من الآداب.

القتلُ بالقتل والأدبُ بالأدب ؛ هذا ما يراه كمال داود، الصحافيّ صاحب الافتتاحيّات المثيرة للجدل الذي تمكّن، برمية رام، أن يحمل الأدب الجزائريّ الفرنكوفونيّ إلى لغاتٍ شتّى... منها العربيّة.

كمال داود

من مواليد 1970 في مستغانم، صحافي في جريدة "Le Quotidien d'Oran".
معارضة الغريب تصدُرُ اليوم بالعربيّة ـــ بعد صدورها بالفيتناميّة، الإسبانية والإنكليزيّة وبكوكبة من اللغات الحيّة ـــ بالتعاون بين دار البرزخ ودار الجديد (بيروت).

ISBN 978-9931-325-99-4
9 789931 325994